

843: B27A: C.1

AUB. LIBRARY

AMERICAN  
UNIVERSITY OF  
BEIRUT



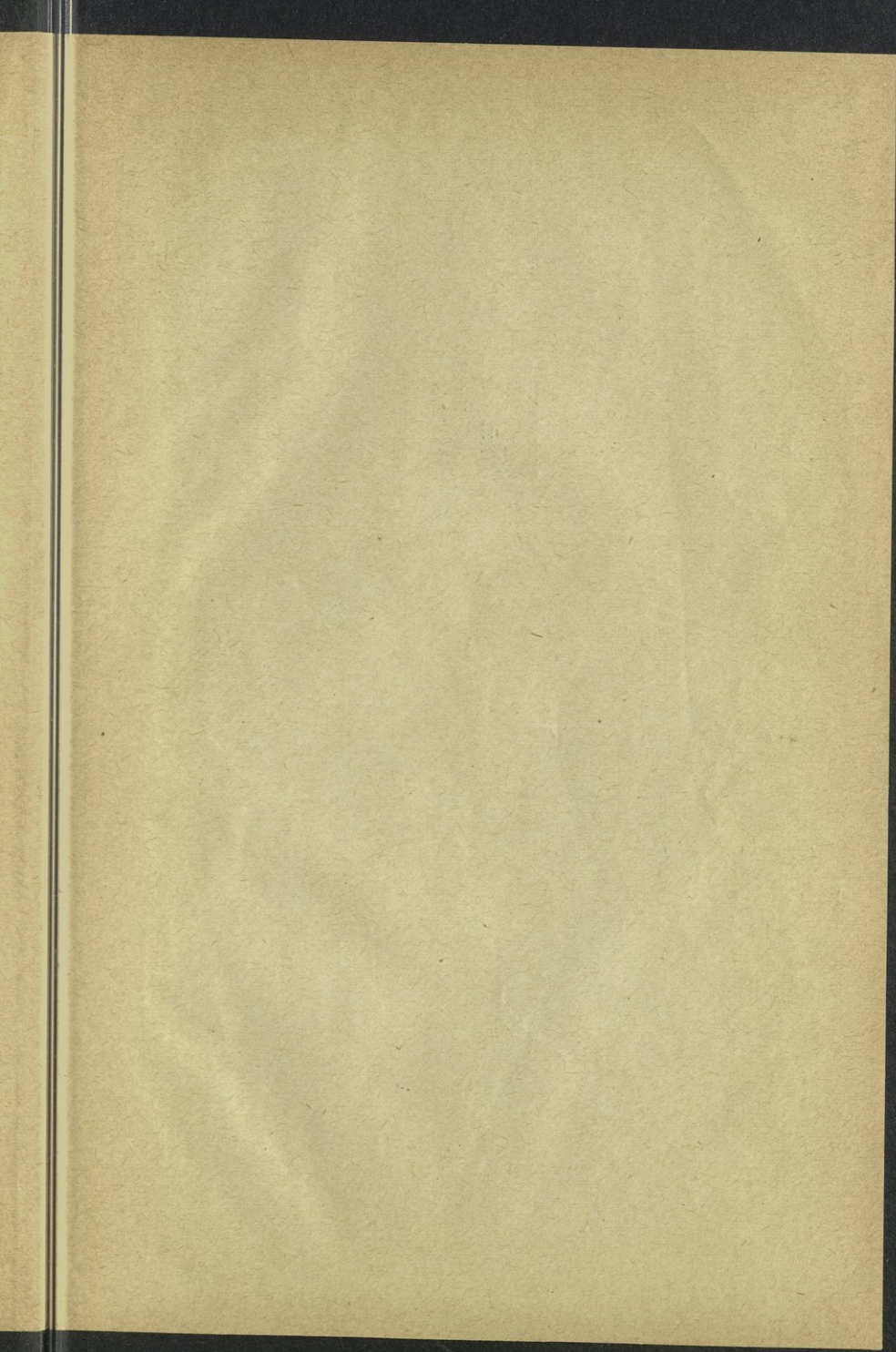


AUB. LIBRARY











جَنَّةُ عَلٰى نَهْرِ الْعَاصِي

Gay. April 1948





843  
B27dA  
C.1

موريس باريس

عضو الجمع اللغوي الفرنسي

# جَنَّةُ عَلَى نَهْرِ الْعَاصِي

تعريب

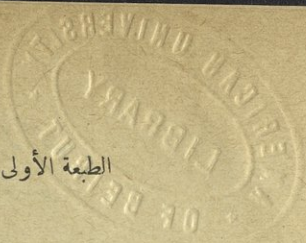
محمد عبد الحميد عنبر وعبد الحميد عابدين

67822

دار الكاتب المصري

Car. Dep. 1948

الطبعة الأولى . . . أبريل ١٩٤٦



العنوان الأصلي للكتاب  
بالفرنسية

MAURICE BARRES  
UN JARDIN SUR L'ORONTE

٤٤٤٤٤

جميع الحقوق محفوظة لدار الكتاب المصري ١٩٤٦



في حماة ، وفي يوم محرق من أيام شهر يونيو ١٩١٤ ، وفي  
مقهى صغير عتيق ، كنت جالسا على ضفة نهر العاصي ، والسواقي  
ترفع مياهه المباركة وتتابع دورتها ليل نهار ، على طول المجرى ،  
فتملاً بأنينها أجواز الفضاء ؛ وكنت بصحبة شاب عالم يقص لي  
من مخطوط عربي قصة غرام ودين . . . لقد كانت ساعة من  
الساعات المقدسة التي تظل دائماً في صميم الذاكرة ، ذخيرة  
ساحرة .

في ذلك اليوم ، وفي هذا البلد العجيب ، الجاف ، حيث  
تسفي رياح الصحراء دوامات من غبار البقاع النائية ، بقاع  
الصليبيين والسلجوقيين والآشوريين واليهود والفينيقيين كنت  
أرتقب تأهب القافلة الصغيرة التي كان عليها أن تهديني إلى كشف  
القلاع القديمة والتعرف على سلالة الحشاشين المعروفين . كان هذا  
الشاب أيرلنديا ، عهد إليه المتحف البريطاني في التنقيب في  
مدينة جرابلس ، على نهر الفرات ، جمعتني به في قصة سعيده  
حينما كان متسكعاً مثلي في أزقة السوق .

عصافير الجنة تطير طيرة المساء، وعكف زميلي العالم على المخطوط  
 يبحثه ويمعن فيه . ولبثت تحت غصون هذه الأشجار  
 الوديعه التي تشبه أشجار بلدنا غير أنها مباركة في هذه البقعة  
 إذ سمحت أن تعيش في مثل هذا الجو الجاف فأذاعت فيه  
 النسيم الرطيب، وأشهد الماء السلسل الذي يبعث الحياة، وعجلات  
 الارخية المتواضعة وهي تسمو إلى ذروة الشعر الحى ، وأتذوق  
 لذة هذه الواحات الجرداء العتيقة التي تضمها آسيا بين جناحيها والتي  
 تنسق مع نبضات قلوبنا الخفية . ياله من حنين يعجز عنه القلم المبين !  
 أى شيطان يقصده القلق الذى يثيره في نفوسنا ذلك المظهر الرائع  
 البسيط ؟ ما الذى أعشقه في سوريا ؟ ما الذى أتوق إلى التعلق به  
 فيها ؟ لكأنى أستنشق في هذه البقعة — فضلا عن نسيم الأنهر  
 الأربعة — ذكرى مباهج البستان الذى كانت تسد طريقه في  
 الماضى السحيق ، سيوف ملتبهة من سيوف الملائكة المقربين .  
 قال الايرلندى بعد ساعة أمضاها مستغرقاً في قراءة نص  
 المخطوط :

— حقاً ؛ إنها لقصة عجيبة ممتعة ، ومما يزيد في إمتاعها أن  
 فصولها حدثت في هذه المنطقة . ألم تلمح ، وأنت قادم من حمص ،  
 آثار قصر ودير ، على ضفاف نهر العاصى ، وعلى مقربة من قرية



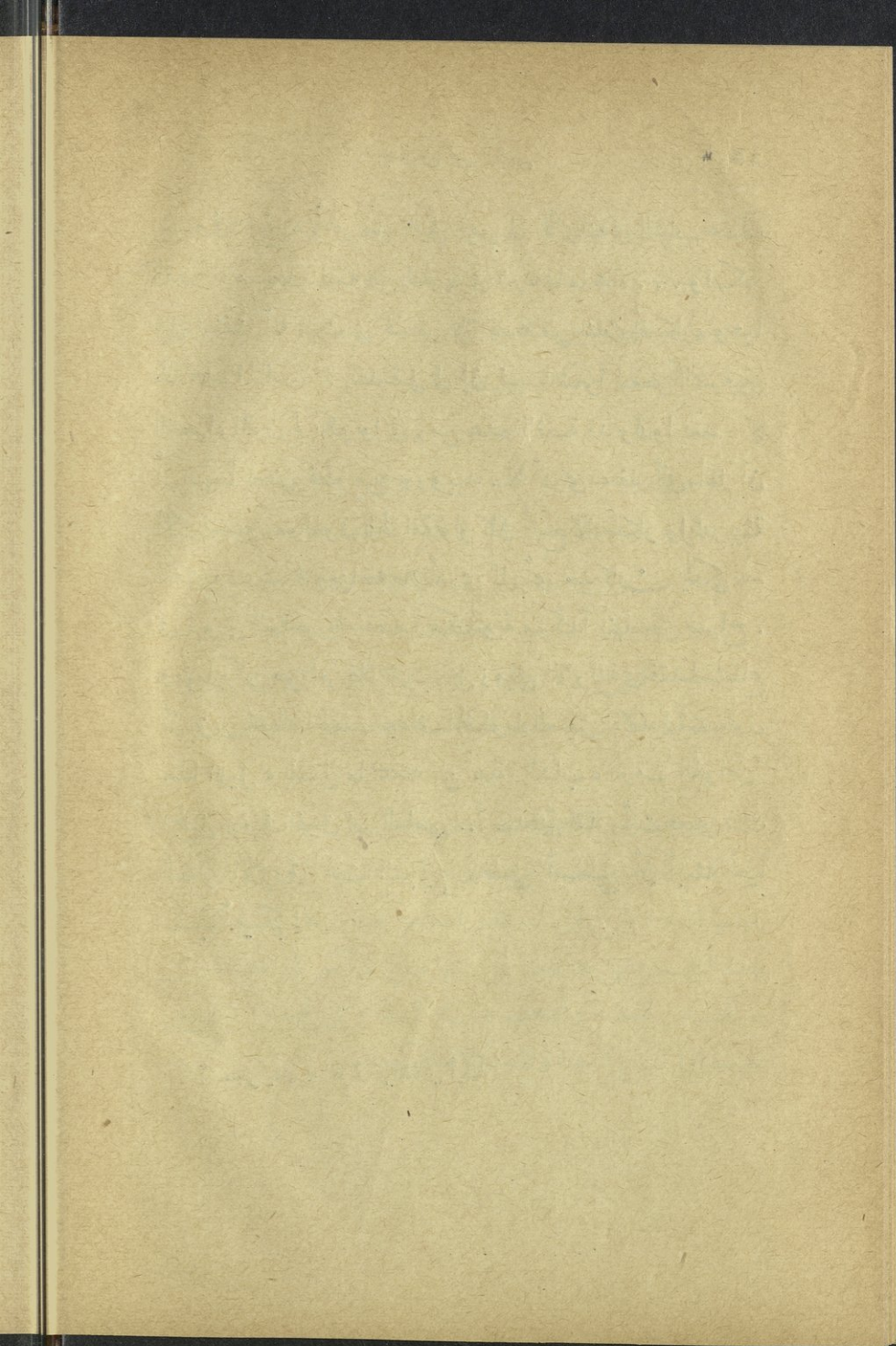
رستان؟ في هذا المكان الذي تذكره بعض الخرائط باسم « قلعة العابدين » كان يعيش في القرن الثالث عشر الميلادي ملك من ملوك الإسلام — وما كنت أعرف ذلك من قبل — وافر النعمة غزير الثقافة . وما كان أكثر عدد هؤلاء الملوك الذين كانوا يقضون حياتهم بين النساء ، ويلتذنون سماع الشعر والموسيقى ، ويتطارحون ألوان اللغة ومشاعر النفوس ؛ ثم تدرّكهم النهاية المحتومة فيصبحون ، على حين غرة ، أثراً بعد عين ، أو ذرة في هبة الريح متلاشية تلاشي الزهرة اليبانة .

قلت له :

— حسناً ! تلك معونة منك طيبة . إن حماة ، بعد الظهيرة وتحت هذه الشمس ، خاوية عادمة الروح ، وها هو ذا الليل يرخي سدوله ، فلتجعل لي هذا الليل عامراً بالشخوص زاحراً بالأشباح ، ولتستدع لي أشخاص هؤلاء المجانين ليمعثنوا على اللذة والامتناع .

فأجابني ضاحكاً :

— سأكون في خدمتك ، وستجد طائفة رائعة من صور الحسن العربي تحكي باقة من زهور الخزامى المشرقة ذات القلب القاتم . على أنه يجب ألا يعزّب عن البال أن كتابة الشرقيين كانت أقرب إلى أن تكون أخباراً منها إلى التاريخ ؛ يسردون





ذات يوم ، استقبل أمير القلعة بعثة نصارى طرابلس ،  
يطلبون إليه أن يؤسسوا معه علاقات ودية ، فرحب بحاملي  
غصن السلام ترحيباً عظيماً ؛ فقد كان يتمنى في صميم نفسه أن  
يتمتع تحت لواء السلم بثروته الضخمة وبساتينه الغناء وحريره  
الزاهر بكرائم النساء . وكان على رأس هذه البعثة فارس يدعى  
السيد جيوم ، له من العمر أربعة وعشرون عاماً . كان فياض  
القلب ، صريحاً ، جريئاً ، فصيح اللسان يحكى في شمائله شعراء  
الفرسان المعروفين . وكان قد حضر من فرنسا منذ كان عمره  
سنة عشر عاماً فأُتاحت له إقامته في سوريا إجادة اللغة العربية  
والتكلم بها بطلاقة تدعو إلى الإعجاب . وسرعان ما أعجب به  
الأمير وأصبحا متلازمين لاسيما وقد كان الأمير ميالاً إلى تجديد  
اللهو كلما عرض له ضيف غريب .

كان الأمير يستصحبه متى أراد الصيد بالباز وكان يطلعه على  
حداائقه وقصوره والمسيحي الشاب يتعجب من كل شيء عجيباً  
لا ينقضى

كانت تعد حداائق القلعة من أجل حداائق سوريا في وقت  
نبغ فيه العرب في التعبير بالماء والزهر عن أحلامهم اللانهائية في  
الحب والدين . كنت تجدف في الحدائق وردة طرابلس ذات القلب  
الأصفر ووردة الاسكندرية ذات القلب الأزرق ، وأشجار  
التُرْنُج والوز والبرنقال والحوخ تظلل القنوات المتفرعة من نهر  
العاصي التي تروى الحشائش المعطرة بشذا الزنبق والنجس  
والبنفسج ، وتنبت — هنا وهناك — ظَلَلٌ\* مكسوة  
بالحرير الأنطاكي والفارسي ومشيدة بالزجاج العربي والصيني .  
وبالجملة زحزت القلعة بألوان من الآهة والفخامة لا يضارعها في  
ذلك شيء .

ظل الفارس الصغير بين تلك المباهج في مرح دائم وكان  
الأمير لا يتردد في أن يتيح له فرصة العبور تحت نوافذ الظل التي  
تنوى فيها زوجاته ليروح عن نفوسهن بمشاهدة الضيف الغريب ،

---

\* الظلة ما استظل به .



فكن يكتمن الإعجاب به . وبعد مضي أسابيع ، بدأ يحس بالفراغ ويشعر أن شيئاً ينقصه لإكمال لذته ؛ خيل إليه أن هذه الأريكة الحربية في حاجة إلى من يبيت فيها الحياة ؛ كان يرى — وهو يجوس خلال البساتين — آثاراً خفيفة على الرمال أشبه أن تكون آثار طباء . وكان يرى الحشايا المعطرة المبعثرة على الحشائش وهي محتفظة بما طبع عليها من معالم الأجسام البضة التي كانت تستند إليها .

قال الفتى للأمير ذات صباح :

— كل ذلك ياسيدي رائع نغم ، ولكن يخيل إلى أن هذا البذخ لا يتم إلا إذا أنعشنا نفوسنا بشيء من العزف على الناي الذي يبعث في النفوس ضحكة اللذة أو لوعة الحياة .  
— أي ألحان تريد أن يُعزف بين يديك وأي نبيذ تريد أن يساق إليك ؟

— إنني أقصد اللذة التي يحصل عليها المرء من غير نبيذ ومن غير ألحان . ليس لدينا ثروتكم ولا ترفكم أيها المسلمون وإنما من عادتنا أن نجتمع نساء وفرساناً ونستمتع في مجالسنا بسماع قصص في الحرب والغرام . وقد كان آخر ما سمعت قصة « تريستان وإيزولت » وما كان لهما من سحر عجيب . وم

كان يبهجنا أن نرى وجوه النساء المشرقة تشاركنا فيما يختلف في نفوسنا من شعور .

قال الأمير :

— هل تظن أنى كالطاووس مظهره هو كل ما يملك ؟ ما قيمة البُسْط والأحجار النفيسة وما قيمة سلطانى إذا لم أكن أخفى من وراء ذلك كله شيئاً أجمل وأروع ؟

فى هذا المساء دعا الأمير جيوم إلى العشاء فى رواق الشرف للقلعة . وجلس كلاهما على البُسْط أمام المأدبة . هواء الليل يمر طلقاً من خلال النوافذ العالية العريضة فيذبذب من خيوط الماء المنبثق من الحوض المرمى فى وسط الغرفة ، وينشر رطوبة وديعة فى جو الرواق . لهب المشاعل يتراقص فتخفى ظلاله بعض ما كان يزين أسفل الجدران وأعلاها من رسوم الببغاوات والغزلان والأرانب الجبلية . وبرزت فى الحائط مقصورة مظلمة من خشب مزركش عربى جلس تحتها الأمير والفتى

عزف الموسيقيون فى غرفة قريبة ، وسقى الأمير ضيفه كثيراً من النبيذ وبعد أن تهيأت المناسبة أمرهم بالسكوت وطلب من الفتى أن يحكى له قصة ( تريستان وايزولت ) .

قبل الشاب أن يقص ، فروى كيف أنهما شربا شراب الحب



السحري وكيف تحابا حباً لا يقهر رغم ما صادفهما من بؤس وشقاء ، وكيف كان واجباً علينا أن نغفر لهما ما اقترفا من ذنوب فان كل فرد منا — شاباً كان أم كهلاً — واثق أنه سيلتقى — يوماً ما — بالشخص الذي يخضع له وينجذب إليه حتى آخر رفق في حياته . وإنه لمدفع في إتمام قصته إذ سمع بعتة هفيف الحرير في المقصورة فتوقف ، ورفع رأسه ينظر إلى المقصورة المظلمة .  
قال الأمير :

— هوّن عليك يا سيد جيوم ، فإنها الفيران تنتظر فراغنا من العشاء لتتناول فئات المائدة ، فامض في قصتك .  
استأنف جيوم قصته ولكنه سمع من جديد هسيس الحديث فقال :

— يخيل إلى ياسيدي أن فيران القلعة تؤثر القصص على الطعام الجيد .

فتهلل وجه الأمير فرحاً بهذه النكتة وأسلم نفسه إلى ضحك متقطع وهو يربت على كتف جيوم ويسأله :

— لم تريد أن تفارقتي بهذه السرعة يا سيد جيوم ؟ لقد تقاهما على نص المعاهدة مع زملائك وسن عقد هدنة عشر سنوات وعشرة أشهر وعشرة أيام وعشر ساعات . ويا حبذا لو أعاهد

أمير أنطاكية ! فلتبق إذن معنا ردا من الزمن ننعيم فيه بالسلام .

— ما جئت ياسيدى إلى آسيا لأجل الحرب وحدها .

— فلائى شئ آخر جئت ياسيد جيوم ؟

— لشيء روته لى أمى .

— ما هو ؟

— كانت أمى قد روت لى قصص الذين تحابوا حتى لَقُوا

حتوفهم ؛ وكان حبهم غنياً أحسوا به قبل أن يجمع القدر بينهم ؛

وكانت تقول لى : « لو كنت شابا لذهبت أفتش عن سعادتى فى

أنحاء الوجود » . لهذا قصدت هذه الأرض ، أرض المسيح

وتقلدت الصليب حتى يوفقتى الله فى مسئلتى فأحظى بجنتى فى

السماء والأرض . وكـم كان أملى أن أرى الملائكة قبل أن ينقضى

أجلى ، ولكنى بعد ثمانى سنوات قضيتها هنا أترقب هذا الحلم

وأشده هذه الأمنية دبّ إلى روعى أنتى كنت مبالغاً فى هذا

الحلم والآن أصبحت أوتر الرجوع إلى مسقط رأسى — وقد

ماتت أمى — لعل أن أجد الحورية التى ضنت بها آسيا ، إلى

جانب كنيسة الثاوية قريباً من الغدير .

أعجب الأمير بهذه الحماسة التى عززت رغبته فى التشبث ببقاء

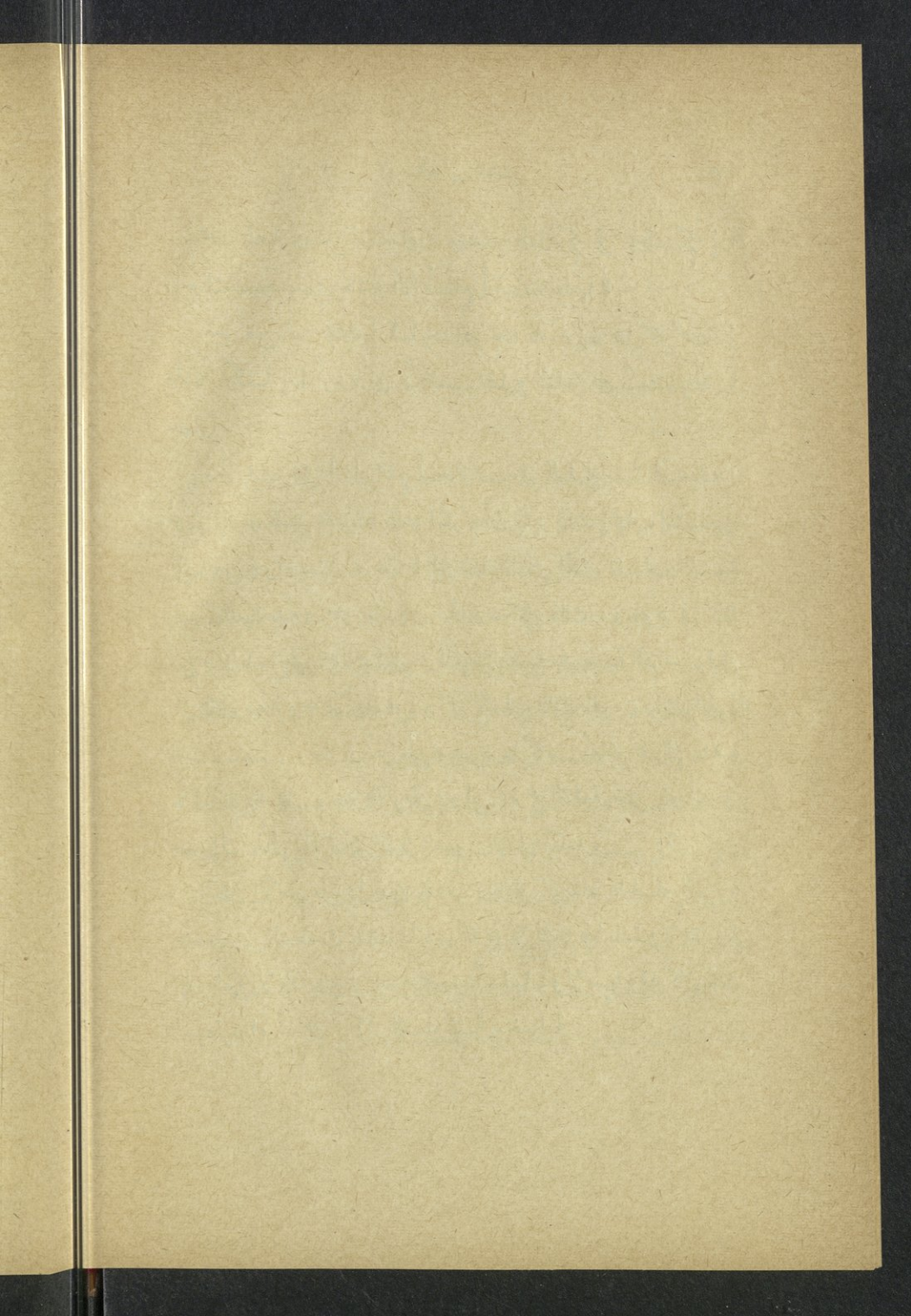
هذا الشاب الممتع . وبعد برهة صمت قال لجيوم :



— أخبرني ماذا تفعلون حسب عاداتكم في وطنكم إذا ما ملك أحدكم غادة فاتنة ألا يُطلع أجباه عليها ؟  
— من غير شك ! كنا إذا خرجنا للمبارزة حمل كل شعار غادته فكنا إذا أردنا أن نكتسب تقدير الناس جميعاً افتخرنا بها جهاراً .

— لك حق ! فلو سمع أحدنا صوت البلبل لقال لصديقه : أصغ ، ولو نسق حديقة غناء لسرّه أن يثير ذلك إعجاب المتطلعين إليها من وراء ستار . حقاً ! إن غناء الناي الذي تتمناه والنشوة التي تطلبها بدون خمر وبدون ألحان ، كل ذلك موجود في ظلة من ظلال بساتيني . إنك تعلم أن الغرة البيضاء في جبهة الفرس دليل على نقاء دمه وجمال جنسه . وإنى لأملك تلك الفرس ذات الغرة البيضاء . . . فلا تياس من وجود ما كانت أمك تخبرك عنه ، فالجنة قائمة على وجه الأرض ، ولن تبرح القلعة حتى يحبك في صدرك جمال الملائكة الذين يحيون ليالى آسيا .

كان الأمير طائشاً حين تحدث بذلك . ولعله داخله الغرور فحمّله على التحدث بتلك المناعم كأنه لا يشعر لها بلذة ولا يتذوق لها طعماً إلا إذا وجد نفسه محسوداً عليها . ولا سيما وقد كان تحت سيطرة امرأة هي أكثر النساء فتنة وخيالية .





في مساء اليوم التالي ، والقمر يودع لغزه على أوراق الشجر ،  
 قاد الأمير ضيفه إلى البساتين وكانت خالية من الرواد ، والورد  
 راقد على الأغصان والعندليب قائم على مقربة منها ، والأميرات  
 ساهرات في الظل ، والأضواء خافتة ضئيلة ، والأزهار عاطرة  
 شذية ، والليل ساكن وديع وكان كل ذلك باعثاً على إغراء  
 عنيف ، موحياً بسحر عجيب .

جلس الرجال على بساط تحت مقصورة مظلمة مخفوفة  
 بالأشجار الفينانة فانبعث من هناك حفيف الشجر وهفيف  
 الحرير ؛ وبعد برهة ، انطلق من المقصورة صوت جليّ يغني :

الوردة في فصلها القصير

تشرّب فوق السور ؛

والعندليب يثير دهشتها ،

حين يقص لها حديث العالم . . .  
 يا لها من وردة سعيدة ،  
 طافت العالم في الخيال ،  
 وهى على جناح العندليب !  
 أما أنا فلا أعرف الطواف والمخاطرة والدهشة  
 وإذا كانت الوردة قبست لونها من العندليب  
 فليس أمامى من قلب يقطر دماً .

وعم سكون زاهر بالظلمات والعطور ثم انبعث هذا  
 الصوت يعنى :

كيف تحب الزهور  
 قل أن يتعهدا رهما ؟  
 كم فريسة للحب والأسى  
 فى الرياض الخلية  
 وعلى الكلاء النضير !

غنت المسامة وكانت الكلمات — على قوة حنانها — تحدث  
 أقل اثر فى روعة السحر الذى يشيع فى غنائها . بيد أن قلباً



حديدًا كأن يتحطم ؛ كان الغناء على قلبه أشبه بماء منعش ينصب على أكف تحترق بلظى الحمى . ثم تمت بصداها غامضة تجري الحرارة في عروقه : « إننى على قيد الحياة » « إننى شاكرة » « الشباب » « الموت » . ومن المفزع أن يشعر المرء باللذة فى أغنية قاتلة كنتك ؛ لها عقب كل صمد وقفة ، هى لحظة الأحلام ، ولها لون من الأنين نعماته مبهمه ثم تمتنع عن سرد الغناء حتى يتتبع السامعون آثار غنائها . كان غناؤها كالصاروخ وهو فى طريقه إلى النجوم يكشف عن قلب محترق ثم يتساقط فى كسف النار .

قال الشاب لنفسه :

— ماذا ! هل يوجد من يشاركنى شعورى فى هذا العالم ؟  
لم يكن ما وسوست به إلى النجوم اعترافا منها ، ولم تكن تلك الألحان الوديعه نجوى إلى أحد وليكنه ضمير يتحرق فى قرار الحريم إلى سماء رحبة . لقد كان صوتها يطوى الكلمات الباعثة بالشعور فى سر وديع ؛ لم تكن صريحة فى التعبير عنه ، كانت تحوم حوله ، كانت ترسمه كما تفعل خطوات الراقصة ، كانت تنفضه بيديها وهو حى فى قلبها . فى هذه الليلة البنفسجية الدافئة استطاع غناؤها أن يحمل فى طياته أسرار فتاة . لا قدرة

لها على كتمانها ، وهى فى سبيل ذلك تجمع بين القلق والرقه  
وتقصد القلوب بجروح لا تندمل .

لم تكن العربية تمل من معاودة أغانيها بالليل ؛ كانت تفرقها  
على الأزهار أغنية أغنية . وكانت الأغاني العفة كالأغاني الملتهبة  
بالحب تتصاعد كلها من فيها وقد مسها سقم الهذيان الذى يبلغ  
إلى الزفرات أحيانا ، وهى تارة كالقراشة فى حبائل الشرك  
وأخرى بأسلة على أهبة القتال وهى تثير بهذه الحالة كل ما تنطوى  
عليه السماء والأرض من النشوة والاستعطاف .

على أن شيئا كان يدور بخلد الشاب : « إنها ستموت فلقد  
شوهدت بلابل تموت وهى تغنى . حلق امرأة ينطق بهذا ؟ كيف  
لا تحطمه هذه القوة ! أم أنها وحش قابع فى المقصورة تحت هذا  
الشجر الملتف ؟ »



تحول الفتى في هذا المساء ، فلقد كان حتى ذلك الحين يعجب بما يراه من القصور والمياه والأضواء إعجاباً لا روح فيه ولا حياة ؛ أما الآن فقد تقمصت هذه المفاتن في نظره روحاً جديداً هو نفس الروح الذي كان يملك قلب هذه العربية . كان يرمق البساتين بنظرة الملول والآن أصبح بينه وبين الزنبقة والسروة صلة إنسانية ، هي نفس ما بينهما وبين هذه الحورية . وأحس الأمير من جانب هذا الفتى بتجدد اللذة في نفسه بعد أن أدرك سلطان هذا السر الخفى عليه . قال له جيوم مرة : « لقد أدركت يا سيدى وهذه الحورية تعنى أن الذين يموتون أطهاراً لا يملون أبداً من سماع أنغام السنطير في جنة الخلد » . ولكن الأمير الطائش اندفع قائلاً :

— آه لو رأيته !

كلمة طائشة تدل على شئ من الاحلال في تقاليد هؤلاء السوريين الذين يجاورون المسيحيين . وربما كان للمرأة العربية

بعض العذر في أن تسلك سبيل اللهو. ذلك أنها لم تحاول أن تلتطف شيئاً مما يزرح تحته الحريم من حياة الملل والجمود.

حاول جيوم أن يتجنب مقابلة كان يحشاها وكان يتمناها أيضاً، كانت تصيبه بعض كلمات هذه الأنشودة السماوية كما تصيب طعنات الرماح الفضية. «لست أنسى ما كان لأمي وأخواتي من رقة الصوت ومرونة الروح، كن كالراهبات؛ وكانت تتصاعد الترانيم أحياناً من تحت أقبية الكنيسة، كنيسة طفولتي، وفيها عنف يحجب إلى الموت ويدفع إليه. والآن أحس بنوع من هذه الرهبة المقدسة عندما أستشعر رؤية هذه المرأة.»

إذن لقد وجب أن يخضع الفتى لرغبة صاحب الدار ولسلطان الأقدار.

وقف جيوم، ذات يوم، عقب الظهيرة، تحت عقود فناء داخلي ينتظر مع الأمير ظهور العربة. وانتبذ جيوم رقعة من الظل طاوياً رأسه بين يديه يستعرض في خيلته الأنشودة الحية. وإذا به يسمع وقع أقدام سرب من النساء، وترفع ستائر العربة ويظهر ملاك الرغبة سافر الوجه. وكأنه قد خيل إليه حين رآها أن أسرار قلبه قد سبقت حسه فإن هذه الطلعة الكريمة هي التي كان غناؤها قد صورها له، أنه وجهها ذاته كما عرفه من قبل.



ورجع به الخيال إلى منابع حياتها فتصور ما كانت عليه سلاتها  
من وجوه صباح وتصور النجوم التي كانت تناجيها بأسرارها  
الخفية .

قال في نفسه :

— إنها أختي التي في السماء ، وإني لابد صائر إلى حبها ولو  
كانت جريحة في خدها .

بدأت المرأة في وشاح مزركش وُخُر موضونة بالزمرد وكان  
وجهها وكل شيء فيها آية بينة على ما انطوت عليه أنعام غنائها ؛  
إنه من غير شك ألحان روح قد صاغها الحب ونسقها الحنان .  
اللهب الخالد ينبثق من عينيها الواسعتين ، ويشف عن نديها  
الصغيرين وجسمها البض قميص سماوي قرمزي . وتتشح بستره  
من الذهب مزررة بجواهر كبار ، وتتمنطق فوق قميصها بحزام  
من البرنجنق ، وتلبس سراويل من الحرير البرتقالي فضفاضة يحكم  
صرها عند قدميها حجال من الذهب .

أذاعت حولها بهجة مشرقة استحالت هذه الهجة من طول  
رسوخها في النفس وترددها على القلب شيئاً أشبه بالكآبة ، كآبة  
كثيفة تكلف المرء أن يتغلغل في طياتها حتى ينتهي إلى العوالم  
التي تتجاوب في قلب هذه المرأة . وكان من المقلق للفتى المسيحي

أن يتجه نحو هذه السماء النورانية وهو الذى انعم منذ قريب  
بلجة من أحلام الرغبة فى الموت .

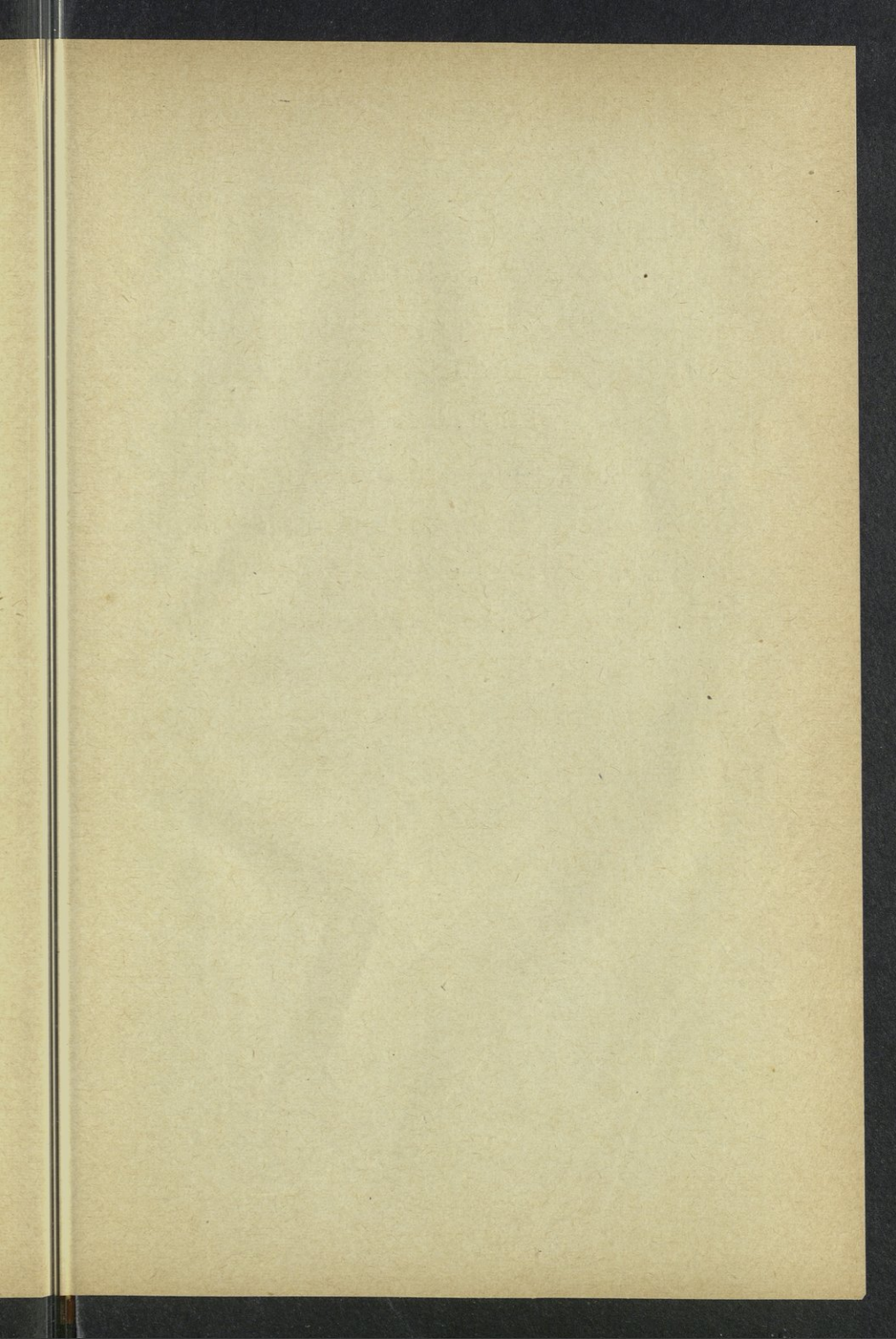
أرادها الأمير على أن تغنى نخيل إلى الفتى أنه يرى فى حلم أن  
دمه يطن فى صدغيه ويغلى فى رأسه . والمرأة واقفة مطرقة  
تغض طرفها على صورة مرتعشة . وظلت دقائق تستعيد فى نفسها  
الأغنية والفتى يرقبها ويجمع من فلول قوته فيملاً بصورتها قلبه  
كأنه نسر صغير يجرؤ على الطيران بجناحيه الغضين . ما أروعها !  
لقد جمعت الشباب والحسن وكل طهارة فى الوجود ! لها ابتسامة  
الفضة وزرقة السماء ولها بريق البحر فى الصباح حين يتكسر على  
شاطئ لبنان ؛ ووقف من خلفها سيدتان تعينانها على نفسها إذا  
ماغشها أمر ، وهما تشجعانها بكلمات حانية رفيقة ، وكأن لسان  
حالتها يقول: « إننى لا أستطيع ، ألا ترون أننى صائرة إلى  
الموت ؟ ! » كان لمعصمها ولأصابعها الوردية قدرة فائقة على  
التعبير كما كان وجهها ينم على خجل فى قرارة روحها . وأخيراً  
دلقت إلى زوجها واستندت إلى كتفه فكانها ترجوه أن يعفيها  
من الغناء .

ارتاح الأمير إلى ما أحست به من تردد خيال وجود هذا  
الضيف الغريب . ولكنه بطيشه أشار إليها مرة أخرى بأن تغنى



وكان المسيحى الفقى فى أثناء ذلك يحدث نفسه : « إن أذان المؤذن والمجهول فى مئذنة عالية بعيدة ليثير بكاء الغريب حين ينزل الليل . وهذا المسلم على قربه من المرأة لا يفهمها ولا يصل إلى قرارة نفسها ! ما أقرب ذاك الغريب من هذا المؤذن ، وما أبعد هذا المسلم من قلب هذه المرأة التى سيضمها الليلة بين ذراعيه ! كم أتمنى — دون أن أخدع نفسى بأمل كاذب — أن تؤثر فى نفسى وأن تظهر أجمل صفاتى . »

أدرك الشاب أنه سمع أغنية سحرية وأنه — بتأثير نشوتها الجبارة — قد كتبت له حياة جديدة .





فُتِنَ المسيحى الشاب ، وكانت لئدة الأمير بفننته لا تنقضى ،  
قال له مرة :

— إن النقطة الواحدة من العطر لهى عصابة آلاف من  
الأزهار ، كذلك هذه المرأة فهى نخبة سلالة عريقة من كرائم  
الأمهات والجدات ، عشن فى رحاب الملوك القدماء الذين كانوا  
يحكمون فى دمشق وحمص وحماة . وما كانت آسيا لتستطيع أن  
تجود بتحفة أجمل منها . هذا توفيقٌ سُخِّرَ لنا ولن يظفر أحد  
من بعدنا بامرأة تضارعها فى حسنها . على أن فى قوصرة الورد  
التي غرسها الله اثنتى عشرة امرأة وكلهن ملك يمينى ، يُدْعَن  
أريج هذا الورد ؛ وفى مقدورى أن أطلعك عليهن .  
فلتسمع كلتى ولا ترحل من هذا المكان ولسوف أعطيك  
ريحانة تشمها .

صرح جيوم للأمير بأنه لا يفكر فى الرحيل فقبّله الأمير  
قائلاً :

— أيها الصديق المسيحى 'عد إلى مخدعك وسترى من  
الليلة المرأة التى اخترتها لك . إنها ذات جمال نضير غرّ ولكنها  
زاخرة بالحكمة .

أحس جيوم بشئ من وخز الضمير حين ترك رفقاءه  
يسافرون من دونه ، على أنه قد أدى رسالته على وجه حسن  
وأمضى معاهدة السلام ، ومن الغريب أن عقيدته لم تكن فى  
وقت ما أقوى منها فى هذه اللحظة ؛ فكان يفكر : هأنذا  
وحدى ، أكوّن فكرة عن الملائكة ، سأركب الصعب كائناً  
ما كان حتى أتبوا مكانى فى الحياة الأبدية إلى جانب تلك العربية  
التي تؤهلها صفاتها حياة خالصة من العذاب فى يوم الحساب .  
وإنه لمتأمل فى هذا الخاطر إذا بكرسى ، يحمله عبد ضخم ،  
يقف أمام مخدعه ويرفع العبد فتاة وديعة ضحوكاً راقية ، فيضعها  
أمام الشاب ، على إحدى الأرائك ، ولم يزد على أن قال :

— ايزابلا من قبَل الأمير .

ولما خلاصاً نجياً قدمت نفسها قائلة :

— يسموننى فى القصر الحكيمة وسأدخر نفسى للذتك



وأدخر حكمتي لما هو أكثر لذة وأشد إمتاعاً . لقد كلفت أن  
أصرح لك بأن هناك امرأة أفضل مني أرسلتني إليك ، تريد أن  
يكون صوتي ووجهي ومجاملتي في خدمتك . فان قبلت خدمتي  
فلتجدن فيها مجالا للمشاركة العاطفية . تركتها الآن وفي استطاعتي  
أن أعود إليها متى زريد . أرجو أن تأذن لي بأن أفشى إليها  
ما يجري بيننا من قول أو عمل فلا تعد ذلك خيانة .

— وأنا يا إيزابلا هل أستطيع أن أعرف عنها شيئاً ؟

— ولم ياسيدي ؟

— هل من الممكن أن أراها وأستمع إليها وأتقدم من

صداقتها ؟

— لا شك فان لديها الرغبة وستخلق الوسائل . إنها تود  
أن تكون مرتبطاً بها ارتباطاً روحياً وأن تدع كل عناية  
من دون إعجابها بك . إنها لن تفقد نصيبها من سعادتك  
وستروض سعادتك بعناية تفوق عنايتك . ولن يستطيع أن  
يقاومها بشر ، فهي كالنحلة الصغيرة زاخرة بالعسل ولكنها  
تطير بحمة قاسية .

— أخشى ألا يكون ما أسمعه صواباً وأن أقع في شرك

شر ذمة من نساء قاسيات يسخرن من رجل غريب .

— إن نفس ما تخشاه هو ما كانت هي تتوقعه منك .  
كل ما يقلقك هو علمها بأنك ستخبرني بكل شيء . لقد  
أعطتني تعاليمها وأمرتني قائلة : « عانقيه واهمسي في أذنه أننا غيرنا  
الحكمة القائلة بأن الموت قائم بين الكؤوس والشفاه وأصبحت  
حكمتنا أن إيزابلا قائمة بين الكؤوس والشفاه إيزابلا التي  
قدمت إليك لتمضي معك ليالى اللذة ولتتحدث عن غرامك  
بعيد المنزل » .



امتلاّت جوانح الفتى بغناء العربية وجمالها ، وملكّت عليه  
 عقله وحسه فأصبحت شغله الشاغل وظلّ يسأل كل مساء عنها  
 إيزابلا دون أن تمل من الإجابة عليه .  
 وخشى الفتى أن يسيء الفتاتان به الظن في أمر عرض لفكره  
 فقال لإيزابلا :

— ألا تجدين أن من الإساءة أن أترك زملائي يرحلون  
 وأظل وحدي في القلعة وأنا فيها غريب الدار ؟ أخاف أن تعتقد  
 سيدتك أنني مستهتر أسلم نفسي إلى المتعة والكسل فلتخبريها  
 يا إيزابلا أن الفكرة التي منعتني من العودة إلى بلادى لا أستطيع  
 مقاومتها أو أهلك دونها . أترين أنها قد أساءت بى الظن فحسبتنى  
 أغير ديني ؟ كل دين يأمرنا أن نفتدى بالأشخاص السماويين وإن  
 أفضل من رأيت هم أشخاص هذه البلاد .  
 فأجابته إيزابلا ضاحكة :

— هون عليك أيها المسيحي الفتى ! إن سيدتى كان يسرها

لو تترك دينك من أجلها وأنها قد حملتك مراراً على تغييره  
لتعرف مدى سلطانها في نفسك .

— إذن كل أعمالها كانت تصنعها بتدبير ؟

— أرايت كيف استطاعت أن تبرهن للأمر على أن الغناء  
الذى تقدمه إليه أقوى وأروع من قصصكم التي تتسلون بها . لاشك  
أنك لا تريد أن تعود إلى ما كنت من قبل تفضله على كل شيء .  
فكر الشاب وهو مفعم بالآسى : آه إنها حاذقة !

قدحت عينا الفتى ناراً وحدثت إيزابلا فيه بدهشة وبإخلاص  
ولم تكن تعرف من قبل أن تأثير المرأة يبلغ بالرجل إلى هذا الحد  
وأن من الممكن أن ترى كائنات خارقاً للعادة في ثوب امرأة .

قال لها :

— ألا أستطيع يوماً أن أتحدث إلى تلك المخلوقة الإلهية ؟

— بلى أيها المسيحى الصغير ولكن انتظر حتى أصورك  
عندها بأجمل الألوان وأنتى أعلم أنها ستعيرنى أذنًا تواقية إلى  
الاصغاء والشاعر يقول :

ومهما تزين الققص بالرسوم والزخارف،

فإن العصفور يبحث عن منفذ بعينه.



ألح على إيزابلا برغبته في رؤيتها والاقتراب منها والانصات  
إليها فأجابته فكأنها تشعل ناراً في قلبه :  
— لا تيأس فسوف يتحقق لك هذا يوماً . في المساء سترانا  
في البساتين جالسات من حولها وحينئذ ستردد قول الشاعر :

أتلک أجزاء مسک      تناثرت حول خضره  
أم البنفسج قد دُبَّتْ      حول أقدام زهره

فإذا تم لك هذا فأسلم زمامك إليها فانها كحور السماء ،  
تسمح بحركات هينة لينة ، لا يقاوم سحرها بشر .

بعد زمن قصير أسند الأمير إلى جيوم عملاً أتاح له أن يلحق  
به إلى الظلل وأن يكثر التجوال في البساتين .

عملت إيزابلا يوماً على أن يمر الشاب في وقت اجتماع الحريم  
في البساتين وكان اجتماعهن في أمسية حلوة ، تحت ظلال البستان  
بقمن حفلة شائقة من حفلات آسيا . البستان في هذا المساء  
بتحول إلى جنة من جنات الحور ، والنساء المسلمات يتزين بالحرير  
ذى الألوان الوهاجة ، ويتقنعن بخمر مزرکشة ، ويلبسن خفافاً

مذهبة مزدانة بالعقود ، ويتضمنن بالعطور ، ويتجلين بالمساحيق  
 هذا سرب منهن يسرن متشاحات كالطواويس على الكلا النضير  
 وهذا سرب آخر يمشن الهوينى كالظباء ، وسائر النساء يلتفن  
 حول العربية تحت شجرة الأرز كعصافير الجنة حول نسر صغير ،  
 وياً كن المسكرات ويلعن النرد ؛ وللحزم والحجلى الحمراء  
 حولهن قفزات ونقرات . والموسيقىون يخلصون إلى مكان غير  
 بعيد ويعزفون اللحن المعروف :

تحت الأزهار يغنى السنطير ؛  
 وتحت الأرز يتهد الناي ؛  
 وتحت الياسمين تنشد القصائد الخالدة ؛  
 وتحت النسر ينحدث عن الحب .

استحال الهواء ساحراً من السحرة ، استطاع أن يمزج  
 الألوان بأريج العطور وأنغام الموسيقى وأصوات الضحك .  
 وتقدمت إزابلا نحو جيوم وقادته بيدها إلى العربية ؛ وساد  
 صمت رهيب فى كل أنحاء البستان واشرابت أعناق الحسان إلى  
 هذا الفتى ، وتهافتن لرؤيته تهافت الظباء على شطيرة خبز قدقت



لظبية منها ؛ وهن لا يزلن محيطات بسيدتهن إحاطة أوراق  
الخزاي بقلبها الأسمر ؛ قالت له العربية :

— ياسيد تريستان ألا تعتقد أننا باقة من زهر الفلاح  
والريحان والزمرد قد تألفت مزيجاً سحرياً فعلاً للحب ؟  
فضحك جميع الفتيات .

وخجل الفتى إذ أدرك أنهم سمعن قصة تريستان وايزولت وهو  
يقصها على الأمير وأنهم كن فيران المقصورة في ليلة العشاء .  
اعتقدن جميعاً أن لجمالهن أثراً في خجل الفتى . وما كان خجله  
إلا من أثر الرهبة التي أورثها هيامه بالمرأة وما كان تنوع الجمال  
فيهن جميعاً إلا فرصة لتعزيز حبه لها ورؤيتها فريدة في حسنها .  
قالت له إيزابلا :

— انتظر ! لا تبرح .

كانت إيزابلا مشغولة بفرزة في وشاح تحوكه للعربية ، وكان  
ظل الفتى منبسطاً على صفحة منه عريضة ، وقالت له بعد دقائق  
ثلاث وهي تلتقي بإبرتها :

— أيها المسيحي الصغير ، لقد حكمت بإبرتي ظلك في هذا  
الوشاح .

صفقن جميعاً لهذه الملحة وابتسمت منهن شفاه ياقوتية

ولمعت صدور ، وتطايرت خصلات شعر وكانت بعض نظراتهن محتجبة بأهداب طوال ، وبعضها مبتهجا في صورة رائعة . كان جيوم يرقب نقط العرق تتساقط من الوجوه الشرقية الصغيرة . وكان حديثهن سقسقة عصافير مبهمه لم يكن يقدر على تبينها ، رغم معرفته للغة العربية ، إلا بالاقتراب منهم وتتبع متممة الشفاه عن كذب . فكان هذا مميحاً له رؤية ما لتلك الشغور الصغيرة من نداوة حية ، ثغور تبرهن كما تبرهن نار الحدقات النجل ، على أن ألوان الحسن في الوجود ليست سماوية كلها . إن ما شاهده الفتى من حرارة باطنة تشع مع نظراتهن ليس إلا صفات خاصة لهن كالأريج للأزهار والشدو للعصافير والندى لآسجار الخريف . كان يرى كل ذلك واضحاً مثلما كان يرى العقد الماسية في حزامها وبالرغم من أنه لاحظ ما تتحلى به من حوائم وحجال من الذهب إلا أنه كان مأخوذاً بتألق عينيها الجميلتين ومظهرها الفذ الهائل الذي كان يبوئها مكاناً علياً بين النساء جميعاً . كانت تغمره بهجة عظمى حين كان يردد في نفسه أن المرأة لم تجد غضاضة في أن يحاك ظل رجل غريب متواضع في وشاحها الالهى .

انصرف الفتى وبدأت كل فتاة مدحه . قالت زبيدة ضاحكة . كانت أشدهن اغتباطاً :



— حبذا يا سيدتى أن يكون هذا الفتى كالطائر الذى يضمن  
الحظ السعيد لمن ينبسط عليه ظله .

وقالت بدشورة الممتلئة الجسم :

— أوه ! سواء أكان الحظ سعيداً أم غير سعيد فانى أتمنى  
أن أفىء إلى ظل هذا الطائر الجميل .

وطلبن إلى الحكيمة أن تستودعهن أسرارها ، ولكنها  
التفتت إلى الأميرة قائلة :

— وأنت يا سيدتى ماذا تقولين ؟

فلم يفلحن إلا فى انتزاع هذه الكلمة :

— إنه ذو وجه حسن ، وإنى مستريحة إلى ما فعله سيدنا  
من استبقاء رهينة بهذه القيمة .

نقلت إيزابلا هذا الحديث إلى جيوم ولكنها أخفت  
بطبيعة الحال موضوع الرهن . فأخذ يثنى على كل فتاة منهن  
مغتبطاً .

قالت الحكيمة وهى تقبله :

— حقاً ، إن كل واحدة منهن ستكون ريشة صغيرة فى  
قبعة نصرانى صغير ، ولكن ألا تعرف ماذا يقول المثل ؟ « كل  
ريشة فى جسم العصفور ذات فائدة ولكن لريشة الجناح الفائدة

العظمى». إنها «غانية الشرق» التي ستصعد بنا إلى السماء.

فقال جيوم بصوت مرتفع :

— فلماذا كانت تتضاحك طوال الوقت ؟

— اغتباطاً بإعجابك كما هو الحال حين تجد أنشودة أو وشاحاً

أو ابتسامة لا يجود بمثلها الزمان لغيرك . إننا نساء ، ورضى

الشباب يبعث في نفوسنا الرضى والحنين . كم تطمئن نفوسنا حين

نحس أننا معشوقات !

— ولكن يبدو لى أنها غير رزينة .

— اطمئن إن لديها إرادة ثابتة .

— ففيم إذن ؟

— فى أنها تسيطر علينا جميعاً .

أصبح لجيوم حرقه إلى مقابلة جديدة لغانية الشرق فيتحدث

إليها منفرداً ، فلقد أفلحت إيزابلا فى إثارة الرغبة الملحة فى نفسه

إذ دعتة إلى أن يعبر البستان حين يحل المساء التالى ، وحين

يؤذن المؤذن .

حضر جيوم الموعد وإذا بهما تقبلان نحوه وقد بدت عليهما

البهجة وتجلتا فى منظر جديد حتى لقد ألقى فى روعه أنه لا يعرفهما ؛

طرحا حجابيهما إلى وراء وتجاذبا الحديث مع ضحكات عالية سببت



إجفال الطيور وفزع الفراشات .

واقترب الفتى وشكر للعربية أن وهبته صديقة كإيزابلا  
يستطيع معها أن يبسط شعوره الخفى فأجابته بأنها معتبطة أن  
تكون إيزابلا هي الرابطة التي بفضلها استطاعت غانية الشرق أن  
تساهم في ربط الأمير والمملكة بصديق وفي .

انسجم الحبيبان بعد برهة . وهكذا كان الفتى يحاط علما  
بالوقت الذي تخرج فيه العربية للرياضة في البساتين . فاذا حضر  
قبلها بحث عن زاوية تتيح له أن يراها في أقرب وقت ، وعلى  
أحسن صورة . ولم كان يحس بطعنة من طعنات خنجر ، محبة  
إلى نفسه ، تتسرب إلى قلبه ، حين يراها تخرج من ظلتها ، تمشي  
الهويني ، فتجتاز ممر البستان الشجير ، تحت الظلال والأضواء  
المتعاقبة ؛ فاذا ما التأم عقد الحاشية الصغيرة على بساط العشب ،  
أمضى الفتى معهن دقائق ، وكانت جلسته تطول المرة بعد المرة ،  
فيسرى تجاوب سرى بينه وبين غانية الشرق وإيزابلا فيما يجري  
بينهم من أشارات ونظرات وسكوت : أحب الفتيات الشاب  
إذ نبعث قصته في حياه السراى الرتيبة روحاً من المرح والتسلية  
وكان في كل منهن نفحة من نفحات أميرتهن ولكن صورة غانية

الشرق كانت أكثر جلاء وممفء : صورة سمحة سماوية ، وجه طفل سمّت به بهجة روحية قتهلل سياه وانبعث منه النور . وقد ينقض الليل وهن في هذه الجلسات الريفية الحلوة حيث نقاء الجو وجمال الطبيعة يسمحان بالنعاس في الهواء الطلق . فاذا حضر الفنى مبعوثاً من السلطان لاستدعاء غانية الشرق التف حوله الفتيات وجهدن في إبعاده عن عالم الفكر والهواجس : زبيدة بسرورها المتدفق وبدورة بصراحتها وحبها الخالص ، وإزابلا وهي تعيد على مسمعه ما تكنه له غانية الشرق من حب عميق . وهكذا استطاعت شجرات البندق أن تتعاقق فتصبح كرمة ومخبأ .

... تسمم الفتى — من حيث لا يدري — بفعل الموسيقى والألوان والشعر والآمال . كل يوم يمضى يصيب له نقطة من هذا الداء العضال الذى لا منجاة منه . وكانت البساتين تسحر قلبه فيظل كالآلة الصماء حيال الزواجر التى يسوقها القدر لضحاياه .



كيف تستطيع مملكة هذا شأنها أن تحتفظ بكيانها ؟ هل حياة القائد ليست إلا التمتع بين النساء بأريج الزهور والإصغاء إلى الأغاني الرائعة ، وإصدار الأحكام بين ابتهاج اللذة وضراعة السرور ؟ هل تستطيع فتاة مهما رجح عقلها أن تسند مصير مملكة يمينها ؟

بينما كان الأمير يستريح مع غانية الشرق ذات مساء إذ حضر رسل فزعون يندرون بأن جماعات من المسيحيين المدججين بالسلاح يتزلون من الجبل .

ما هذا ! بعد إمضاء المعاهدة ! ماذا يكون موقف جيوم إذن ؟ بدا السخط على غانية الشرق بوجه خاص :

— فإن كانت خدعة من هذا القتي فلا بد من إعدامه في الحال ، أما كنتُ على حق حين نصحتك باستبقائه رهينة ؟

لم تكن العربية تتكلم بهذا العنف خوفاً من الحظر المحدث  
 فحسب ، بل كان شيء آخر ، أقوى وأهم ، فقد اعتقد الحريم أنها  
 نجحت في إخضاع الفتى ، واليوم ، يظهر لمن أنه يسخر منها  
 ويغشها وهذا جرح لكبريائها وإهانة لها .

استدعى الفتى والليل معتكر وتوارت العربية خلف ستار  
 وتكلم السيد جيوم فبرهن على حسن نيته وسلامة طويته :

— لو كان أمير طرابلس هو الذى خالف الشروط التى  
 ضمنتها لكم فستكون الإهانة موجهة إلى أكثر منها إليكم ؛  
 ولكنى أعتقد أن أمير أنطاكية هو الذى يهاجمكم فلا شك أنك  
 لم تُصِيب حين أحجمت عن التعاهد معه .

تواترت الأخبار بما يؤيد رأى السيد جيوم ويؤكد نظريته  
 فأنصرفت العربية إلى سيدها الأمير تلومه على تقصيره ، وتقارن  
 قصوره وتهاونه بنفاذ بصيرة المسيحي الشاب .

توافد الفلاحون طوال اليوم إلى المدينة بماشيتهم وحاصلاتهم  
 ولم يكن من حيلة إلا قبول هؤلاء التمساء وإيواءهم فما كان  
 للدولة جيش يكفى لحمايتهم فى قراهم ؛ كل ما لديها كان شرذمة  
 — ما أقلها — للدفاع عن أسوار المدينة .

فى المساء طاف الأمير مع السيد جيوم فى شوارع المدينة



فاستقبل بوجوم مفعم بالأسى والحنق . واهتمت « غانية الشرق »  
بالوقوف على كل شيء بنفسها فتبعتهما في هودج . وتسلق ثلاثتهم  
أسوار المدينة وراقبوا العدو ، في الأصيل ، وهو إلى جانب  
المدينة يعزز مراكزه وشاهدوا خيامه وحرابه وأعلامه وسمعوا  
زحجرة الجنود .

قالت غانية الشرق للمسيحي :

— فهوؤلاء هم الفرسان الذين يريدون قتل النساء أو — على  
الأقل — يريدون أن يفرضوا علينا جميعهم كما يريدون أن يفرضوا  
نير الاستعباد .

فاحتج السيد جيوم احتجاجاً شديداً ، وقال إن المسيحيين  
الفرسان هم أشد الناس تقديراً لحرمة النساء . ثم نظر فأشار إلى  
علم أمير أنطاكية يلوح في الضباب في وسط المعسكر منقوشاً  
عليه صورة مذهبة للعدراء .

لحظت غانية الشرق ارتباك الفتى . فقد كان يتألم وهو يفتش  
عن سبيل إلى أداء واجبه حين تطلع إلى إخوانه في الدين .  
أما كان واجباً عليه أن يمرق إلى ما وراء الأسوار فينحاز إلى  
بنى جنسه ويتجنب القتال ضد راية العدراء ؟

لم تصارحه غانية الشرق بما لحظت ، ولكنها مدت له في

أسباب الحديث ، وكانا منفردين ، فقالت له ، بعد أخذ ورد ،  
بصوت حنون خاطف ونبرة هادئة خفية وهي لضرب له على  
لغمة الترهيب والترغيب :

— ماذا ! هل من المعقول أن فارساً مسيحياً يريد أن يترك  
في وقت الشدة حبيمته التي شاركته في رخائها ؟ إن الذي لا يدافع  
عن بئرهِ ليس أهلاً لأن يشرب منها جرعة واحدة .  
ونجاة أقسم الفتى أنه لن يتركها مهما كلفه الأمر .

رجعوا جميعاً إلى القصر ، ودُعي الفتى للاشتراك في المجلس  
الحربي ، وكان رأيه واضحاً قاطعاً . قيل في المجلس إن القلعة  
لاستطيع المقاومة بحال وإن من الممكن أن يحصلوا على مساعدة  
عسكرية من سلطان دمشق وأن يحكموا نصارى طرابلس في هذا  
الموقف . كانت كل المشكلة في رأى جيوم تتلخص في هل من  
الممكن الصبر على هذا التدخل المزدوج ؟ لهذا أكد وجوب  
المقاومة ، ونصح بإخلاء المدينة في الحال وتكديس كل الموارد  
في الحصن ، وكان الحصن في زاوية من المدينة على تل مرتفع  
يتخذ هيئته ، وحينئذ لا يحتاج الأمر إلى عدد كبير من  
المدافعين حول الأمير وحريمه . ولما كان الحصن مطلاً على



الخلاء كان من الممكن في الوقت اللازم أن ينقذ أويخلي . وختم  
جيوم رأيه قائلاً :

— فاذا ما استولينا على جميع الموارد التي أحضرها الريفيون  
إلى المدينة أمكننا أن نكسب الوقت وأن نقاوم شهوراً طويلة .  
ولكن الأمير عبر عن حقوق هؤلاء الفقراء ودافع عنها .  
فأجابته العربية :

— آء ! دع حديث العاطفة الآن للنساء واعمل على تأمين  
حياتنا .

وفرض رأى السيد جيوم عليهم — على شدته — وسلب  
اللاجئون من الفلاحين وانحازت أسلحتهم إلى ذخائر الحصن . ثم  
تركوا إلى المسيحيين يسومونهم سوء العذاب . وكذلك فعل  
بالصناع والعامّة الذين عجّزت الدولة عن إمدادهم بالقوت . وتنتج  
عن هذه التصرفات المحزنة أن استاء الشعب وتحمل الأمير  
وحده مغبة هذا الاستياء ، ومن ذلك الحين ظهر جيوم في نظر  
الشرذمة المحظية القليلة التي تقيم في الحصن في مظهر الرجل  
الحازم الحكيم وانعقدت عليه كل الآمال .

وما كان الفتى يفكر في أثناء وجوده بالمجلس الحربى إلا في  
الفتاة ذات الوجه الفاتن الذى يكاد ينطق بأن الحب والهوى

الملمهم يستحقان تعب الحياة وآلامها ، ذلك الوجه الذى كان يتتبع بسداد وحكمة ما يعرضه الفتى من آراء . ذاك جانب آخر من جمالها ، ما كان يعرفه من قبل والآن أصبح يعجب به أكثر من إعجابه بألوانها وأريجها وأغانيها .

فى لحظة من لحظات التسجيل ، فى جنح الظلام فكر الفتى وهو يقوم بالحراسة الليلية : « ها أنذا أسهر بين أعداء جنسى وعقيدي ، أشاركهم فى مآثرتهم ، وما ذلك إلا لب امرأة من خلف هذا الجدار يملكها رجل آخر ويضمها بين ذراعيه ! » ولكنه مع ذلك لا يقبل لحظة واحدة أن يتخلص مما وقع فيه من هذا الأمر المريع . لا شيء بدون غانية الشرق ، كل شيء معها ، الحياة أو الموت مع غانية الشرق .

قضى وقته فى الحصن بما فيه من حياة ضيقة مختنقة فهاج حسه ، وثارت نفسه ، واقتضت ضرورة العمل ليل نهار أن يسمح له بالدخول فى منطقة الحريم والتردد عليها .

وهناك كان كل شيء يوحى فى مجموعه بحياة قريبة من السماء ، هناك الزهور والعطور ، والشباب والجمال ، والغناء والضياء ؛ كان الفتى يرى الأمير ناعماً بين نساءه أو منفرداً بغانية الشرق . ولم تكن واحدة منهن تقرض الفتى المسيحى ولو نظرة ؛



لم يكن إلا شبحاً تقمحه أبصارهن ، لكي تقع على الأمير مولاهن . فالنساء يؤثرنه بالضحك والثناء والعريضة تضي على ذلك من سحرها وفتنتها .

اختلس الفتى ليلة استطاع أن يمضيها إلى جانب إيزابلا وأسلم نفسه للشكوى :

— ما لكن جميعاً تهملني ؟ إنها سجية تقلق خاطري وتروغي ؛ تجاهلتنني إلى حد ظني ألا عاطفة مطلقاً تربط بيني وبينكن ؛ إنكن تتظاهرن وتحتجن إلى حد لا أتوقعه ، لهذا لا أستطيع أن أتبين فيكن ودّاً ولا إخلاصاً .

— وَيْكَ ، أقسم أنا ، معشر النساء ، لولا أننا نتقن فن الكذب لكان مصيرنا الهلاك . حين تستريح غانية الشرق إلى جانب الأمير على الأرائك فيصغي إلى دقات قلبها في سكون الليل فكأنها تخشى أن يفهم سيدها شيئاً من حروف الهجاء التي تملأها هذه الدقات ، فسرعان ما تحيط نفسها بكلمات من الزهور والعطور ، تشغل باله وتشتت أفكاره . ألا تعرف ماذا كانت تقول لي أمس : « ما أشد ابتهاجي حين أنصور وأنا أرقد كالطفل الوديع أن حبيباً قد نزع إلينا من مكان سحيق من العالم بمهر على راحتي ويحرسني في نومي ، ويؤمن سلامة القلعة » .

— إنها ترقد إلى جوار شخص خائب لا يعرف كيف يبعد عنها الخطر .

ولكن الفتاة وضعت يدها على فم الالافظ لهذه الكلمات الشداد وأسرت إليه وأنفاسها تتردد في عنقه .

— صه أيها المسيحي الصغير ! مثل هذا المقال يفهم ولا يقال .

استدعت العربية السيد جيوم في اليوم التالي ، في أثناء النهار ، وما أكثر ما كانت تستدعيه حين يتركها الأمير إلى الحصن فتظل في وحدتها يساورها القلق والاضطراب . راجعت نفسها في هذا اليوم واستقرت على أنه لم يكن من سبيل إلى إنقاذها إلا بمعونة دمشق وتحكيم طرابلس ، فأضفت عليها حالتها النفسية لوناً من الخفقان والبريق لم يعهده الفتى من قبل ، وسألته حمايتها فاثارت بذلك هيام الشاب المخمور بنشوة الحب . ومن خلال النافذة الضيقة ذات القضب الحديدية شاهدا بساتين العاصي : فالأزهار تموت من العطش ، والموسيقيون يلقون بمزاهرهم لانصرافهم إلى الخدمة في القلاع . ولكن ما قيمة هذا كله ؟ إن في غانية الشرق من الفتنة والسحر ما يغني عن البساتين والموسيقى ، في شبابها وأحلامها ما يورث الشجاعة



ويجدد القوة ؛ إنها تجيد التريمة التي تصاغ من النظرات الحانية  
والحنين الدافق ، إنها ترصد في غبطة ، علامات قدرتها في عيون  
الشباب ؛ فكيف لا تشعر مهما كانت ظروفها ، أنها سيدة القدر ؟  
في هذا اليوم سألت الفتاة وألحت في السؤال عن أخلاق  
النبلاء الأفرنج وأى مكان تنزل المرأة في قصورهم ؟ وهل لأميرة  
أنطاكية مثلاً جانب من السلطان ؟ ثم قالت للفتى :

— أنا أعرف أن بعض النبلاء العظام قد تزوجوا نساء من  
العرب بعد أن تنصروا .

أضاء وجه الفتى بالأمل وامتدح لها أخلاق المسيحيين ثم  
أحس فجأة براحتها الباردتين تهبطان على يديه وهي تسأله بلهجة  
ساذجة ونظرة نفاذة ، وصوت خافت :

— في قصة ترستان شئ لا نفهمه ، كيف لم يتخلص  
ترستان من الملك مارك ؟ لا شك أن واحداً منهما كان زائداً  
عن الحاجة .

— ولم تسألينى هذا السؤال ؟ أتريدى امتحانى ؟

لم تحر جواباً وظلت ممتدة على حشيتها مزهوة بشوة الصبا  
التي تدفعها إلى العجب دفعاً . لقد كانت تفكر في أنها لم تخلق  
لذل الإِسار ولكن لتحكم وتختار .

تثنت غانية الشرق بعطفها في ثوب وحماس فأشبهت تلك  
الأرواح التي لم تنطق مطلقاً بـ « لا » . كانت عادتها قبل أن  
يعرض الحديث في مجالسها وتعاليمها والشفاعات الموجهة إليها  
تندفع بقول « نعم » . « نعم » مائة مرة ، ومع هذا كانت تخفي  
وراء هذا الضعف وذلك الخضوع الظاهرين قوة ، يالها من قوة  
جبارة ! أرايت إلى نشاط النملة في ديبها والنحلة في مطارها !  
لنشاط روح تحب السلطان وتؤثر السيطرة ولا تقبل أن يقف  
شيء في سبيل ميلها الخفي الجبار ! لم تكن الابتسامة ولا الرضا  
ولا الخضوع ولا السحر الذي كانت تبذله بسخاء بالذي يمنعها من  
أن تنقب الحجر ، وتصعد إلى القمر ، وتقذف بالذين تحبهم إلى  
وهدة الفناء ، فذلك أحب إليهم من أن يفلت من يدها سبيل الارتقاء .  
وجدت سيدها عاجزاً ، فانصرفت عنه بل خلعت من قلبها .

كان حكمها الذي تمكنه في ضميرها سابقاً لحكم القدر ؛ فقد  
حدث ذات يوم أن خرج الأمير — رغم عدم موافقة السيد  
جيوم وسائر المدافعين عن الحصن — إلى معسكر المسيحيين  
لمحاولة إشعال النار في خيامهم ولكنه فشل وأصيب في المعركة  
بجرح مميت ، قيل إن لرجاله يداً في إصابته ولكن شيئاً من  
ذلك لم يتضح . ثم استطاع رجاله أن يحملوا جثته إلى الحصن .



حالما وضعت جثة الأمير في الحريم ، حضر جيوم والتفت  
النساء حول الجثة ، وندبت غانية الشرق الفقيد حسب المراسم  
المتبعة ، فسجدت عند وصول الجثة ولكن السرور والأمل  
كانا ينتقلان من شخص لآخر من خلال النظرات السريعة التي  
تبادلها النجوم في سماء الليل البهيم . جذبت غانية الشرق الفتى  
إلى غرفة الذخائر وقد كان مفتاحها عند الفقيد وهناك ، بين  
موارد القلعة وثروتها يتألق وجهها العاشق في الغرفة المظلمة  
تألق وعاء من المرمر قد ملئ نورا . قال لها الفتى :

— لقد أخلصت في خدمته من أجل حيي لك . ولكن  
ما قيمة الكذب ؟ إننى مغتبط لوفاته .

فأجابته وهى تبعده بحركة :

— قبل كل شئ ، يجب أن تحكم القلعة .

وفي الحال بادرت قبل حدوث أية مؤامرة فاستدعت الزعماء والقواد وجلست بينهم ووقف جيوم إلى جانبها، وأفاضت عليهم برشاقتها ما شاءت في امتداح شجاعتهم وسداد رأيهم وولائهم. وختمت أخيراً بأن توحيد الصفوف واجب في هذه الآونة وأن المصلحة تقتضى بالتكاتف وعدم الانقسام وإلا فان مصيرهم أن يقتل بعضهم بعضاً وأن يفنيهم الأعداء :

— وإن السيد جيوم هو الذى محضنا النصيح بأن نجتمع مواردنا في هذا المكان وهو الوحيد الذى يقدر أن يجلب إلينا معونة نصارى طرابلس في الوقت الذى نستنجد فيه بمسلمي دمشق . فأنا أقترح أن تؤلف تحت رئاسته مجلس دفاع .  
وفي عبارة موجزة قالت لهم بصوت نقي ، وبمنظرة فتاة عذراء :

— إننى أنتظر منكم خدمات جليلة . وأما مصير نساء السراي فعليكم وحدكم حمايتهن . فهن يهبن بكم وها أنذى أدعوكم أن تتقاسموهن . ولتؤل إليكم تلك المبالغ الطائلة التي كانت تصرف كل شهر على جناح الخريم فمن الحق أن تؤول إليكم هذه الأموال . فهتفوا للعربية ولقبوها بالأميرة تأييداً منهم وأخذوا على عاتقهم إقناع مرؤوسيهن من الضباط والجنود .



وهكذا انتقلت السلطة إلى يد الشاب دون عقبات .

وعند المساء حضرت إيزابلا الحكيمة وأخذت بيد جيوم وقادته سرّاً إلى غرفة غانية الشرق المذهبة . وبينما كانا يتسللان في ظلال الممرات الطويلة خطر لإيزابلا أن ما قدمته من خدمات في سبيل توكيد الحب بين الحبيبين قد أثمر وثبتت أصوله فروت له قول القائل وكانها تودع هذه الفرة :

« إن زهرة الخزامى ، سرعان ما تزدهر وسرعان ما تفتي ، أما الزردفانه يتكون بطيئاً ويصمد للريح والمطر ويتجاوز الفصول . »  
ورأى الفتى غانية الشرق فبكى منتشياً وركع بين يديها فقالت له :

— كم انتظرتك قبل أن أعرفك ! كم رددت في نفسي بلهفة : متى يحلّ بهذه الغرفة الشخص الذي تلج على آمالي أنه شريكى وأنى سأكون على يديه سلطنة سعيدة حتى آخر رفق في حياتي . هلمّ إلى أيها الحبيب بين هرج الخطر وضغط الأحداث ، كل شيء هنا ملك يديك .

كان وجهها المتألق في نقاء ، ويداه الناعمتان المخضوبتان ورجلاها الصغيرتان المجلوتان بالمساحيق ، وجسمها المصنوع من العنبر والياسمين ، كل أولئك ينشر ضوءاً كضوء مصباح خافت



فى مسجد . . وأذن الفجر وإذا بولولة النساء تنبعث من القلعة  
حول الجثة الملكية ، وإذا بطبول المسيحيين تدق فرحاً حول  
المدينة . وكل من الحبيبين فى هذه الساعة كاحمل الوديع يستريح  
بين ذراعى راعيه الصغير أو كالحية البريئة المنكمشة تطلب الدفء  
فتنسأب برفق على صدر طفل تحبه . فى هذه الساعة أشبع الفتى  
رغباته الروحية والجسدية وعاش فيها خارج الزمن ، وكل كانت  
نهشته حين قالت له غانية الشرق فى أثناء الليل ، وهى  
مرتفة :

— إنك من دين المسيح والعدو من إخوانك المسيحيين  
فاذا حدث أن سلمت المدينة إليهم فما الذى يمنع من أن تكون  
الملك الأول وأن تكون حراً فى اختيار ملكتك ؟

— آه يا نور حياتى ، يا نجمة الصبح ، يا باب الخلد ؛ لا شك  
أن الناس جميعاً مسيحيين وغير مسيحيين ، يتمنون أن  
يندرجوا تحت لوائك ، أما أنا فسيجدونى زائداً عن الحاجة .  
فان كنت تريد أن أفعل ما تقولين فأنا لا أحب أن أجرب  
هذه المخاطرة ؛ إذن حرمت منك وأنا لا أستطيع بعد البرهان  
الحنون الذى يتيح لى هذا الليل أن أحيأ أو أن أموت إلا فى  
ظل مودتك الكاملة المقدسة .



— نعم ، كاملة مقدسة ، ولكنها لا تكون إلا مودة خارقة للعادة . إعلم ، وأنا أقولها لك صريحة في هذه اللحظة التي تضميني على قلبك ، أنني لا أستطيع أن أعيش بدون أن يحمل الناس الأعلام والرايات بين يدي ، لا أريد أزهاراً ولا أريد كنوزاً ، أريد أن يكون في وجوه القوم مظهر التقدير والطاعة لا سمات الابتسام والإعجاب . أريد طاعة تنتج عن رهبة يعنو لها من يطيعني . إنني لا أستطيع أن أتنفس بدون عظمتي كما لا أستطيع أن أتنفس بدون حبك .

بهت جيوم ، كيف يلذ لها أن تتحدث بمثل هذا في مثل ذلك الوقت ، ولم يسمعها قولاً كثيراً ولكنها قبلها في حب متأجج وفرحة وثابة ، ولا غرو فلم يجد في ثورة كبريائها إلا تحريضاً على اللذة .

وكان فجر هذه الليلة باكورة لأيام متعاقبة رائعة . وخرج جيوم من الغرفة وفي قلبه أسرارها ، والمرأة تملأ العالم في عينيه تغريداً وتعطيراً في الوقت الذي ماتت فيه أشجار الورد وطارَتْ عنها البلابل . زحرت سماء القلعة بألحان الامتنان الذي ينبثق من أعماق الكائن الحي — بعد اللذة — كما تزدهر أزهار مسحورة في الليلة الواحدة ، على سطوح المياه العميقة ؛ واستولى على جيوم شعور

عنيف بعد ما شاهده منذ حين ، من الإقبال السابغ واللفظ الغامر ، شعور يوعز إليه أن من الخير أن يتجنب — نوعاً ما — وهو مسرور ، هذا الإقبال وتلك الملاحظة ، فلهذا يتمتع بهما على صورة حسنى ، فيعيش فى خيال من الحب والجمال أقوى وأشد مما فى الوجود والواقع ، ولكنه بعد برهة يتصور أنه سيتطلع إلى رؤية حبيبته فيتخفز للقائها ويجمع بجانبها فلول قوته ، فهو يقلق وينطلق بالغناء ويستعيد بذاكرته ، فيبارك السماء على منتها ، ثم هو أحياناً بعد فسحة من الراحة ، وبعد تنفس عميق ، وبعد نفاذ المناعة التى يدرع بها وازداد الذى يتزود به ، وتحت ألم التهديد الضيق الذى لا يحتمل لا يلبث أن يحن إلى العربية ويعاود إليها الكرة لى يرجع الثقة إلى نفسه بصوتها ، ونظراتها وكل شىء ينبعث من جسمها وروحها .

توقع الحبيبان فى كل لحظة أن تقوم ثورة داخلية أو ينتصر المسيحيون المهاجمون . وخلق هذا الخطر المستمر والتهديد المحقق شعوراً فى نفس غانية الشرق ، لست أدريه إلا أنه لون من النشوة الرقيقة ؛ وخلق فى نفس المسيحي اندفاعاً عنيفاً من اللهفة ؛ وخلق فيهما معاً الغيرة الجنونية التى يحس بها المسرعون



إلى الفناء إذ يتمنون أن يتغلبوا على قصر الزمن بعنف الهوى  
 فيصيحون : « إذا ما حطمت الأقدار قوانا فلأن يكون من  
 جراء العشق أحب إلينا من أن يكون من ضربة دامية تحطم منا  
 لقوة وتنزع سلاح الحياة »

ما أشدها مضايقة حينما يقبل نساء السراى مجتمعات فيرفعن  
 ستائر الغرفة المذهبة ويقاطعن ما فيه الحبيبان من حلاوة ولذة !  
 فيروين لغانية الشرق ما يصادفنه من لذة وألم فيما ارتبطن به من  
 علاقات جديدة . ولم يكن من شيمتها أن ترفض السماع من  
 هؤلاء الفتيات المخلصات فإن مساس كرامتهن قد يؤدي إلى شيء  
 خطير في حياتها ، لهذا ، كانت تجاهد نفسها على أن تقبل عليهن  
 برهة من الوقت ثم تسلم نفسها لما هي فيه من نشوة وخيال .  
 فكانت هذه المجاهدات النفسية التي كانت تحشأها أروع تصريح  
 لأحلامها . إن فراشة الليل في اندفاعها البريء لا تبالي عندما  
 تضىء الشعلة .

تحرق جيوم للاستماع إلى الفورة الممتعة التي يحدثها هذا  
 الذهن . إنه في نظره فريد لا نظير له في العالم بما فيه من مزيج  
 من المكر البريء والحلم الوديع الطائش . ولكن سرعان ما كان  
 يفكر : « إنني لأريد أن أراك ولا أن أسمعك ، ولا أن أتنفسك

أريد منك السكوت والصمت ، أريد لو أن عيني مغلقتان وأذني لا تسمع ، من لى إحاسة سادسة أكثر رقة وأشد إرهافاً ، تحس ما بين القلب والقلب حتى أكتسب معرفة لك وقرباً منك . » كل هذه الرقة والإبداع والحركة الدائمة كانت تلح عليه إلحاحاً مرهقاً ليستمتع من اعماق غانية الشرق إلى ما يؤثره على كل الأضواء وهو النعمة الحقة لروح غانية الشرق .

كان يخيّل إلى الفتى ، قبل الحصار ، أن غانية الشرق ، وهى تحت السيف المسلط على الرقاب ، ستنفجر توسلاً وتخيراً ساجدة عارية الساقين مشدوّهة الثغر ، وستضطّر تحت تأثير الرهبة أن تخضع لكل أمر ، ولكن ، حين كثرت المصائب ، تكشف غانية الشرق عن روح ملوكية تصر على توجيه القدر وترفض قبول أى شىء ينقص من قدرها ، روح غنيقة فياضة لا حد لها . إنها تطوى في أفكارها الباطنة عقلاً أشد نورا ، كان يقدرها على أنها فضيلة حية ؛ وأنهما حبيبان يفضل كل منهما الآخر على نفسه ، ويرغبان في أن يموتا معاً حتى تزدهر حياة واحدة أشد جمالا ، ويطلبان اللذة مع التحقق من أنهما يفتيان إنسانيتهما فيها حتى تنبثق عن كائنات سماوية . . . إنها أول لحظات سامية من حب متحقق . كان كل شراب الكبرياء



السحري ، والأدب الساذج والنشوة الناعمة التي كونت منها  
غانية الشرق سحرها وفنتها إلى الآن ، ترحب بتمثل الموت  
دائماً لتزيد قوة على قوة . لقد كان في محبة جيوم أنه يحظى ،  
بين ذراعيه ، ببطل فتى .

وقضى العاشقان الليالي والأيام وروحهما ترفرفان إلى أسمى  
الدرجات متاكفتين متلاصقتين ، وكانت غانية الشرق تغنى :

ليتنا نستطيع أن نمزج أنفاسنا الأخيرة ،

كما نمزج الآن أقرب لحظاتنا بالحياة .

ونحتم في راحة واطمئنان ، تحت صخرة واحدة ،

وحدثنا التي لا تنفصم .

فإذا أبى الحظ السيء إلا الفراق ،

فعبثاً يحاول ، فلن يصيبنا إلا التعذيب ،

دون أن يصل إلى تفريق وحدثنا .

فإن نشوتي تسربت فيك

ونشوتك تسربت فيّ .

وتركت قلبي يأخذ من قلبك علامة خالدة ،

فلتذهب ولتهرب فأني متشبث بك

أمين عليك كأنك تحملني معك  
ذهابك وغيابك مرتبطان  
بعضهما بعض بحض إرادتي !

كان جيوم وهى بين ذراعيه يستمر جاهاً فى مطارتها  
وتتبعها كأنه لم ينل منها وصلاً ، وكانا يتماحيان وهما مجتمعان  
كأن نهر العاصى قد أوقع بينهما بالفراق .



لبث الحصار ، على عنقه ، ستة أشهر . ولبت العاشقان في هذه اللذة ثلاثة وأراد القوي القدير أن تعترض صخرة ضخمة طريق الماء في القناة الجارية تحت الأرض وكانت تحمل الماء من الجبل إلى القلعة ، فمنعت الصخرة وصوله إليها .

ولاحظ عاملان هذه الكارثة فلاذ أحدهما ، وهو في غمرة اليأس ، بالهرب إلى صفوف الأعداء ، وطير الآخر ، وهو في هول الفزع ، الخبر إلى جيوم ؛ وحاول جيوم بالوعد والوعيد أن يمنع انتشار هذا الخبر المشعوم بين المدافعين . ولم يخبر إلا غانية الشرق ؛ قال :

— فإن البئر تحتوى على ماء لمدة ثمانية أيام وبعدها نذير الموت . لقد حلت ساعة التصميم على شيء . لنهرب معاً إلى دمشق فالسعادة تنتظرنا هناك .

وبهت الفتى حين رأى الفتاة في مظهر الجد والانقباض .

قالت :

— شهد الله أنى على أهبة أن أدع من أجلك كل ما أملك  
من غنى وسلطان ولكن لماذا ، إذا ما عجزنا عن المقاومة ،  
نفكر فى اللجوء إلى دمشق وندع الانحياز إلى الرؤساء  
المسيحيين .

فأجابها :

— إذا قضت مشيئة الله أن نفقد ما هو فى أيدينا اليوم  
فهل نضحى بحبنا هذا الحب الذى لا ينازعنا فيه أحد ، والذى  
هو أول ما نملك فى الحياة ؟

— إذا شئت أن تأخذ ما نملك فإن جوابى نعم على كل  
تمنياتك على .

— لا تهمنى بأننى أتمنى . بل اتهمى الضرورة التى تلجئنا  
إلى ذلك .

— أية ضرورة ؟ فيم يسبح فكرك الخفى ؟

— لا فكر خفى من أجلك . إنما إن بقيتنا هنا نغير  
ما يمكن حدوثه هو أن تدخل فى فراش أحد الغزاة وما على  
حينئذ إلا أن أشاهد ذلك يحدث نصب عيني .  
— إنك لا تلحظنى أبداً بقلب مخلص .



- إذن لنهرب إلى دمشق . أسلم طريق أن نلوذ بالهرب .  
 — لن أستطيع الذهاب إلى دمشق .  
 — إنك ستكونين كوكب الأمنية الذي يهدي القافلة .  
 — لن أكون ملكة في دمشق .  
 — شاركي حظي ، أسعديه ، كوني السماء الصافية لأيامنا  
 العواصف ، إنني أتوقع مستقبلا ملكيا لنا . ما أشد ذهولك  
 وأنت تصفين إلى ، دعيني أضمك بين يدي ، وأقف قبلك  
 نظراتك ؛ دعى صدرك المرتاب يتسع لأملى الملتهب ، ألا يغمر  
 قلبك إيمان بالقوة حين تشهدين جراتي وقوة تأكيدى ؟ حسب  
 ابتسامتك ونبرات صوتك أن يصرفن الحظوظ العائرة . كوني  
 جميعاً لي ولا تسامى نفسك إلى هواجس أخرى .  
 — إنني قريبة منك وحدك وها أنذى الآن موجودة  
 ولست بنائية عنك .  
 — يمدو أن الدموع تهرب من عينيك .  
 — لقد دنت لحظة الوداع فلا تنس هذه الساعات فقد  
 تتعاقب هنا للمرة الأخيرة . ولا كف الآن فإن دموعي  
 تنهمر حين الأطفك . إذهب واذكر أنني كنت أبكي وأنا  
 أعانقك .

في هذا المساء صعدا إلى برج القاعة كعادتهما ، وكانت ليلة من الليالى السوروية الزرقاء . وفي هذه المرة كانت غانية الشرق تتصنع الاهتمام بمحديث الشاب . فانظرتها ، ولهجتها طابع آلى . وأسامت يداً لأحياة فيها في يدى الفتى . وبدا أن روحها منصرفه إلى وجهة أخرى . لقد ظلت الأسابيع الطوال من قبل وهى تذوب رقة ودعة ، وتألق حب ، وحرارة هوى ، ولكنها الآن ذات وجه شاحب لا يزدهر ، ساهم لا ينشط ، راس لا يتحرك ، يعلوه لون من الصفاء القاتم وهى الآن تستسلم إلى حلم جديد لا يتفق مع أمنية العاشق . فماذا كان شعورها ؟ إنها لم تكن قلقلة ولا حزينة ولا مترججة وإنما كان حالمها الجديد من طراز آخر أعمق وأهم . أو قل إنها روح صممت على أن تشق طريقها وحدها بعد أن عرفت أن الارتباط الذى عاشت فيه ردحاً من الزمن فى طريقه إلى الزوال . مثلها كمثل القائد الذى عجز عن إعادة المتذمرين إلى لواء الطاعة فلم ينزل إلى درك المناقشات التى لا طائل تحتها . لقد أصبحت غانية الشرق امرأة أخرى ليس للفتى بها عهد . ولكن أصبحت لها مرونة عجيبة فلم يكن من اليسير أن يسبر الفتى حالمها العميق . ولم يكن تألم الفتى من هذا الأمر يبالغ حق القلق والازعاج ، فقد كان يقدر — بسذاجته — أن



الحب بينهما متين لا يتسرب إليه ضعف ، واستغلت المرأة هذه العقيدة فاستطاعت أن تتهرب ، للمرة الأولى ، تحت هذا الغطاء الثلجي فاتخذته ستاراً أمامه .

وجلجل صوت رهيب ، على حين غرة ، يشق جوف الظلام وإذا به صوت أحد القواد المسيحيين ينذر المدافعين وهو واقف على صخرة أمام القلعة :

— ستموتون عطشا ؛ سلموا إلينا المدينة ، شاركونا ذخائركم ثم اذهبوا أحراراً ، لا يزيد إلا نساءكم ، ما عليهن من بأس فمن شاء منهن أن يتنصر وإلا فلهن ما شئن .

وأصابت هذه الحماسة جيوم في صميم قلبه ، وما كان أبلغ هذه الإصابة حين ملح جيوم في غانية الشرق امرأة جديدة . لقد كانت منذ قليل ساهمة الوجه كثيبة الأحلام ، فإذا بها الآن لا تتخرج من إعلان الخصومة فلم تعد أهلاً لأن يثق بها الفتى ؛ ففي الحال رفعت وشاحها وأزاحت من على رأسها . ولو كانت امرأة أخرى لقتف بها الفتى إلى قاع البرج . ماذا ! هل تريد هذه المرأة أن تكشف عن وجهها ليأمرها ذلك العدو ؟ العدو الذي يجب أن تحفوه وأن تحشاه ؟ سألهما الفتى في ذلك حين أقبل المساء فأبكرت ، وهي متماسكة ، ما كان هو متأكداً أنه رآه .

هل من الممكن أن تكون مضطربة إلى درجة الهذيان ؟ وهل من الممكن أن تنقلب صورة مباينة كل المباينة للمرأة السامية الرصينة التي كان معجباً بها منذ بداية الحصار ؟ ولكن الخطر الداهم والفرع المحقق اللذان يغزوان الحصن قد صرفاه عن هذا التفكير المعض فان خطورة الموقف قد برزت الآن بأقوى مظاهرها .

قال المؤرخ : « وكان رجال القلعة كالسكارى ، لا يفهمون ما يقال وانصبغت وجوههم بالسواد وفقدوا كل سيطرة على أنفسهم فأصبحوا يترنحون كأمواج البحر » .

ومل السيد جيوم الأحاديث التي ظل يهرف بها هذا الأحمق على الصخرة ، فأوعز إلى أحد الرماة أن يترصد له . ولم يكذب يراه الرامي حتى قذفه بسهم طرحة أرضاً . فصاح الفريقان : « لقد قتل أمير إنطاكية » ولكنه — بالأسف — كان لا يزال حياً فقد آثر في اليوم التالي أن يحمل إلى صخرة أخرى ، قريبة من السراى - ، وهناك صاح في المسامين إنه لا يزال في صحة جيدة وليقتلهم شنقاً وليستحيين نساءهم .

ومع هذا فكان كثير من العرب يرجون المسيحيين من خلال الأسوار أن يمنحهم قليلا من الماء فكان أكثرهم



يحييهم : « ألقوا إلينا بشيء يعجبنا » فكان العرب يقذفون ما عليهم من ثياب وحلى وما لديهم من نقود ، ثم يدلون السلال من أطراف الجبال حيث يضع المسيحيون لهم جراراً من الماء . وبذلك نشأت علاقات ، لاحظها جيوم نفسه ، ولا سيما بين حاشيته وبين زعماء المسيحيين فشدد في منعها وأنذر بالعقاب وسيطرت عليه فكرة الهرب من هذا اليأس .

كان قد عقد النية على الهرب منذ زمن بعيد ، وذات صباح اصطحب غانية الشرق وإيزابلا إلى غرفة الأموال وغلق الأبواب وقال لهما :

— لقد ضاعت القلعة ، ولكني سأنقذ كما مع أئمن الأشياء  
المكسدة هنا .

فصاحت غانية الشرق :

— ماذا ! هل بلغنا إلى هذا الحد ؟ هل ألقينا بكل سهامنا في هذا الصراع ؟ لن أبرح هذه البلاد ولو بقي في السماء نجمة واحدة . إني مصرة على الاشراف على نهاية أملنا الأخير .

— لا أمل إلا في الهرب ، فلتجمعنا كل ما تستطيعان حمله من الذهب ولتتقلدا ما شئتما من النفائس والآلئ ، ولسوف نعيش ، فإذا كان لا بد من الموت فلتكونا ألمع جثث بكت

عليها الملائكة ! سأعطيكما بعد ساعتين إشارة الرحيل .  
 وكانت خطة جيوم التي عرضها عليهما : إن المحاصرين لقلعة  
 عددهم لا يستطيعون أن يحتلوا جميع ثغور القلعة . خير سبيل  
 أن نشد على الأعداء بهجوم عنيف نحصرهم به أمام المدينة ،  
 ولا شك أننا سنرتد على أعقابنا ولكننا سنعمل على الصمود حتى  
 الليل فنتقهقر إلى القلعة تاركين المدخل الأول . ففي الوقت الذي  
 تنشغل فيه قوات الأعداء في المقاومة في هذه الثغرة سيخرج  
 من الممر الخافي الفتاة العربية ويزابلا وقليل من الحمالين ثم بعد  
 برهة يدركهم الفتى منفرداً على معبر العاصي الثالث .

كانت غانية الشرق لا تصغي إليه وكانت عينها اللتان طالما  
 امتلأتا بنشوة حنون تتنفسان عن أمر جسيم وذهول عجيب .  
 فكر : « إنها على حق ، أسعدتني بحبها ثم ضيعت عليها  
 سلطانها » .

قالت له وهي تضمه بين ذراعيها :

— إني أشكرك على حسن طويتك وكن على يقين أنك  
 لا تنفك عن فكري حتى ألقاك ولن تهتدي إلى صديق أفضل مني .  
 ولم يكده ينصرف الشاب حتى انفجرت عواطفها فأصبحت  
 تحدق وهي لا تبصر وتفتح عينيها على ظلمة وسواد ، وبداءها



باردتان في يد إيزابلا التي تدعوها أن تفيق وقد استولى عليها  
دوار شديد ؛ لقد أصبحت قطعة حية من الانفعال والفوران .  
قالت وهي لا تملك أعصابها :

— هل قدر لي أن أنتهي من أن أكون غانية الشرق ؟ هل  
ينبغي أن ألوذ بالفرار ذليلة ، وأخضع للأقدار صاغرة ، وأسلم  
نفسى إلى حكم إرادة تشك في قوتها ؟ إذن فسأفقد عرشى دون  
نضال ، وسأقبل هذا التبذل وأنا المترعة بالسعادة ، أنا التي كنت  
أثور إلى درجة الألم حين يلوح في الآفاق مجد محرم على ، سأنحدر  
إلى ظلام حالك وإلى مأوى رخيص وإلى غيب مجهول ، مع قلب  
يتلظى نشاطاً إلى النور ويثور حرقة إلى القمة . سأكون بجعة  
قدرة شطت بها النوى عن ينبوعها الأول ، وسيكون ذلك إقراراً  
محطى . سأجلب على اسمي الشفقة بدلاً من الحسد . سيتطرق  
إلى نفسى ضعف ثقتى بقوة إغرائى وتأثير سحرى . . . لا . لن  
أستطيع . فإذا أتاح لي ذلك حبي فإن غرورى ليمعنى . إن حبي  
يقبل ( نعم ) ولكن صوتاً ينبعث من مكان أعمق من هذا  
الحب يقول ( لا ) بصوت خافت عنيد ، أعمى ، لا أستطيع أن  
أكتمه . يلح على هذا الصوت أن أتجنب القرار ، ويفرض على أن  
أكون سلطانة أمر وأنهى . . . قضينا ليالى معاً مررت بنا سرعاً !

وأشرفنا معاً في حيننا على أصيلين متلاصقين كجوهر رقي عقد .  
أما أيام الذل ولياليه فلا قبل لي بها حيث تتساقط لحظاتها نقطة  
نقطة لتكون على قلوبنا برداً وسلاماً .

امترجت هذه الأنعام الشجية بضجيج المعركة المنبعث من  
الخارج والذي كان يتصاعد ويتمقارب في كل دقيقة تمر ،  
وامترجت بولولة النساء التي كانت تتجاوب بها أنحاء القلعة .  
قالت إيزابلا :

— لنسرع يا غانية الشرق ولتستجيبى لعاطفتك ؛ دعى  
ما تلميه عليك إرادتك الملحة ؛ أسرعى ! وإلا قتلنا .  
ولكن غانية الشرق تتمت ذاهلة وعيناها ثابتتان سابحتان  
في سريرة نفسها :

— لا تخافى . أأنت أنا التي خلقت لكي أنزع سلاح العالم ؟  
وسرعان ما اختفت في الحريم وانبرت إيزابلا ، دون أن  
تصيحى إلى كلامها ، تحفن الأموال والنفائس بيديها من الخزانة  
الضخمة وتصرها في مناديل هندية وملاعق حريرية فارسية . وبعد  
هنيهة رجعت غانية الشرق مزدانة باكليل وشعرها مرسل على  
كتفيها ، سلطانة تسلم زمامها وهي تشتعل باليأس وتلتهب بالغرور .  
وغلبت على إيزابلا صيحة إعجاب وألم .



— كم أنت جميلة يا غانية الشرق !

— ألم أقل لك إنه ينبغي أن يكون كل منا جثة ساطعة .  
تقلدى هذه الجواهر وضعى فى معصمك هذه الزمردة والبسى  
هذا الحمار المذهب .

— ولماذا ننزين يا أميرتى ؟

— لعُرسى أو لجنازتى .

قرع الباب فى هذه اللحظة أحد رجال حيوم . وأصدر إلى  
الفتاة الأمر بالخروج إلى جهة ما بدمشق ، وكان جيوم حينئذ  
مشغولاً بتنفيذ برنامج خطوة خطوة .

أطال فى وقت دفاعه لىكى يتيح لها الزمن للرحيل ثم تسلل  
خفاة من الطريق الذى رسمه لها هارباً من القلعة ، وتابع الطريق  
فى لهفة .

رافقه خادم واحد وظل فى سيره يشترق إلى لقاء محبوبته  
وحاشيتها . وفى أثناء الليل ، عند المعبر الثالث لنهر العاصي ، وصل  
إلى المسكان المرسوم .

لم يجسد الفتى إلا مياهاً ترتطم بالصخر وصحراء تزخر بالغربة  
والإيحاء . لا أحد ! ماذا أصنع ؟ أعود إلى القلعة وهى الآن  
نهب للغزاة ؟ نعم كنت أفعل لو أننى تحققت أن غانية الشرق

قد ضبطت في أثناء هروبي فُجِزت في القلعة . ولكن ربما أخذتها رهبة الموقف فانقلبت بسرعة إلى دمشق وآثرت أن تقابلني هناك صدفة على أن تتبع آثار الطريق المرسوم . وربما ضلت الطريق وستحضر بعد قليل ... كاد الفتى يجن ، ولم يرجع إلى صوابه إلا لكي يتهم نفسه بأنه فقد بتفريطه وسوء تقديره المرأة التي كانت تحبه وتسلم إليه قيادها . ودار بخاطرهِ ما عسى أن يمس العشيقة من ضر ، وأحس بنظرات الغزاة تقف على وجه الأسيرة العارى .

ولم شعاع القمر السجى على الرمال . وانتظر ساعات قاتلة وأخيراً ، عند انبثاق الفجر لم يجد حيلة إلا أن يستشير :  
 — يا ذكرى أمى ! ألهمني سواء السبيل . أين أجد الحقيقة ؟  
 وقرّ في روعه أن يذهب إلى دمشق ولم يحجب أن يشك في لقاءها هناك .



لم يجد جيوم في دمشق الفتاة العربية ولا أى بيان عنها . هل ماتت ؟ أو لا يزال جبينها الساطع ، المتطلع إليه ، منكساً في ذل الإيسار ؟ لم يحر جواباً على هذه الاسئلة . ولقد كان هو أول من أبلغ أهل دمشق أنباء الكارثة التى حلت بالقلعة .

وقد عللوا حدوثها بأن الله قد أرسل الملائكة المقربين ، جبريل وميكال وإسرافيل لينتقم بعده من أمير القلعة الذى تجاوز حدود ما أنزل الله . وأراد سلطان دمشق أن يتجرى هذه الأنباء فدعا جيوم إلى ديوانه فقص له كيف أن القلعة كانت تتلطف إلى معونة السلطان وكيف نفذت آخر حيلة بما أصابهم من ظمأ شديد فقرر مجلس الدفاع تحويل الذخائر إلى دمشق ، ولكن حدث أمر جليل فقد أخلفت ميعادها امرأة من أنبه نساء الحريم ، غانية الشرق المشهورة ، وكان يثق فيها

الأمير كل الثقة . ثم أظهر جيوم استعدادة للعودة إلى القلعة  
 ليفاوض القوم ويرجع بالفتاة العربية بعد اقتدائها بالمال .  
 كان جيوم كالكرة لا تكاد تصك الحائط حتى ترتد إلى  
 مكانها الأول فهو لم يكد أن يطأ أرض دمشق حتى فكر في  
 الرجوع إلى القلعة ، غير أن السلطان ، وكان طاعناً في السن ،  
 قصير القامة ، أحمر الأنف ، رأى الخضوع لإرادة الله التي قضت  
 بهزيمتهم قبل أن يرسل المدد إليهم . أما اقتداء امرأة بالمال من  
 هناك فلا أفهم لها معنى . . . . وأردف قائلاً بنغمة ساخرة :  
 -- أترك للمسيحيين حساب المسلمات فما أصدق قول  
 الشاعر :

ويعجبني صنّع الندامي إذا طغى عدوُّ أذاقوه كؤوس غرام

دع الجمال يصنع ما يشاء وسترى بعد قليل .

خصص السلطان للمسيحي الشاب منزلاً على ضفاف نهر  
 بردى الذى يروى واحة دمشق ، وأصدر تعاليمه المشددة  
 بالألا يبتعد عن المدينة وأن يحضر لزيارة السلطان فى فترات  
 منتظمة .

كانت بسايتين بردى ، فى دمشق ، من أجل أمكنة الإقامة ،



حيث كان حيران جيوم يقضون نهارهم في لذة التمتع بالنبيذ والموسيقى والحسان ، ولم تكن للفتى لذة إلا في الدهول والآنطواء لغياب محبوبته ، فهو لا يستطيع أن يطرد الفكرة التي تسيطر على ذهنه في كل لحظة : « لماذا لم تحضر في الميعاد ؟ هل ماتت ؟ فان كانت على قيد الحياة فلم لم تلبثمس السبيل لمراسلتى ؟ »

كان لا يحس إلا بالآلام الحب . ما أشبه لذات دمشق بمذاج القلعة في نظره ! كلاهما بعيد عن روحه فليس في المنازل الناصعة والمساجد القائمة والمياه اللامعة والعشب الكثيف والضوء الذي يغمر المدينة ، ليس فيها جميعاً ما يعجب وما يطرب إلا بقدم الغائبة حتى تشاركه الإعجاب بهذه المناظر ؛ وما تفوح الأزهار وأشجار البرتقال وأشجار الناز إلا باليأس حتى تعبق بأريجيه الفتاة . إن في دمشق — كما يعترف هو — مجالا كبيراً للذة والسعادة ولكنها كانت في نظره تختأ صامتاً لم يأتها إلاذن بعد بإشارة البدء .

فإذا شتق الفجر ، بعد نومة قصيرة ، انبعث أنباح الحزن في جوانبه ، وفي طهارة الصباح والعدوبة متألقة ، والأضواء راتعة في الماء ، والغصون عاملة على تمزيق هذه الأضواء ، يسائل

نفسه : « لماذا لم تمت ؟ بأية طفرة أسرع إلى حتفى ! » فإذا تمشى  
 فألى غير قصد ، يردد الشعر الذى كانت تنشده العربية ، والألم  
 يشعل ناراً فى قلبه ؛ يسمع ما يمس حلقها الرفيق من صوت  
 ذائب ونفس لطيف ونعمة رطبة وينظر إلى قسماط وجوها  
 الهادئة وهو فى منظره الجانبى ، وإلى أهدابها المسبلة فى وجه  
 وضئ فتى ، وإلى ما يعتلجها من لذة وألم وحركة ، وإلى يديها  
 اللتين تثبيان إلى النفس الرقة والعدوية . فيحس فى جزع بسهام  
 الجمل مرشوقة فى لحمه وقلبه . فإذا وجد نفسه فى الشوارع  
 الضيقة التى يحيم عليها السكوت والغبار جد فى سيره وأسرع فى  
 خطاه هرباً مما يستولى على فكره من هواجس قتالة وشغل  
 شاغل . وكثيراً ما كانت تحطمه الذكريات وهو فى وضح النهار  
 فيقع فى سبات عميق نتيجة الجهد الجسمانى العنيف . فإذا حل  
 المساء وهفت نسائمٌ جدد على نهر بردى انطلق الأذان يتماوج  
 على المدينة فيحكى الأمنية التى تتصاعد من قلبه نحو السماء .  
 وما كان أكثر تفكيره فى الموت والحياة حين يسير فى طريق  
 حلب بين أشجار الحور والصاج سيراً ينتهى إلى أقصى حدود  
 البساتين ؛ وحين يجلس قريباً من ينبوع الزينية حيث يتوافد  
 أهل دمشق فى آخر الصيف ليشربوا من أعذب ماء فى الواحة ،



وهناك يتربقب الفتى الوجوه التي تيمم شطر بلاد آماله .  
وفي ذات يوم ، حضر في هذا المكان نفر من اليهود آتين  
من القلعة فرووا أخباراً شتى عن المذابح التي أجراها المسيحيون  
قبل أن يحتلوا الحصن . قالوا :

— ولكن حدث بعد أن خربوا ما خربوا أن توقف قائدهم  
لجأة ، وبطريقة غير مفهومة ؛ فأطفأ الحرائق وجمع الأحياء في  
سوق البهائم . . .

وشرب جيوم جرعة من الماء وسألهم وهو يسمع نبضات  
قلبه عما حدث لنساء السراى فأجابوه بأنهن وُزِعْنَ على قواد  
المسيحيين .

— وغانية الشرق المشهورة ؟

— وزعت كأخواتها .

إذن فهي تعيش ، هي على قيد الحياة ! وأسلم نفسه إلى  
لذات لا تحد بعد أن تحقق من وجودها . ثم بدأ القلق المدهم  
يزحف من أعماق نفسه وهو ، بين لحظة وأخرى ، يلجأ إلى  
القول : « إنها لا تزال حية ! » هذه الحقيقة كان يتمثلها في  
خياله ويملاً بها فكره ويلقى بهواجسه الأخرى في جنح  
الظلام .

وعاد إلى منزله وأسلم نفسه إلى مهاده ، واستغرق في تأملات عميقة طوال أربع وعشرين ساعة . وكان يهجس في أثناء الليل : « لا أعتقد أنها تود من صميم نفسها أن تبقى زمناً طويلاً كهذا ، دون أن نحن إلى اللذة وتصبو إلى الحب ، ولا أعتقد أن أحداً ممن تعيش معهم الآن يقبل ما هي فيه من التحفظ والاحتباس . » ساورته ففكرة ذات صباح أنه سيلتقي بها يوماً ما وسيموتان بالسعادة إذ يطيب لهما العيش كل إلى جانب الآخر . إنه يريد أن يتسلل إلى معشوقته وقد غلبها النعاس ليقرأ على وجهها الوديع مدى ما تستحقه من ثقة . كان يكتب نفسه على الامتناع عن هذه الخفة وسوء الظن حتى يكون جديراً بهذا الحب الكبير . كان يكتب نفسه أيضاً للبحث عن وسيلة للوصول إليها وافتدائها بالمال .

وإنه لغارق في هذه الآلام إذ حضر رسول من السراى يفجؤه بدعوة سريعة لأمثول بين يدي السلطان فسطع أمله وظن أنه سيوفده إلى القلعة . ولم يكد يدخل بهو الاستقبال حتى صاح فيه العجوز القصير متهللاً :

— عندنا خبر طيب ستدهش له ؛ إن زعيم المسيحيين يعشق



غانية الشرق كما تعشقه إلى حد الجنون ، غانية الشرق محبوبة  
الأمير السابق ، ويقال إنه واقع تحت نفوذها المطلق .  
طعنت هذه الكلمات الفتى بآلام جسام وجوى ممض :  
— لست أدري ما يوجب الدهشة من فتاة في هذا العمر  
وهذا الجمال .

— بطبيعة الحال ليس في هذا ما يدهش ولكن موطن  
الدهشة في أن كليهما يعملان باتفاق تام على تنظيم الدولة وتنسيق  
بساتين العاصي .

واعترت جيوم نوبة يأس مع أنه كان في دحيلة نفسه  
لا يصدق شيئاً من هذه الخيانة المغنوية ؛ غير أنه كان يحزن  
بمجرد ذكرها . فما كان يقال عنها من كلمات ولو كانت مكذوبة  
إنما هي إهانة لها . قال في حضرة السلطان إنها فتاة تستحق الموت  
ولكن السلطان لم يشاركه هذا الرأي .

— إنك مسيحي وأريد أن أبوح لك بسر منعني الحذر من  
إفشائه لرجالي . إننا لا نستطيع أن نتعاون مع إخوانك في الدين .  
ورسم السلطان سياسة لاتفاقية اقتصادية ، كما تقول اليوم فوافقه  
جيوم على خطته وحيد رأيه وعرض له أن يعود من جديد إلى القلعة  
لكي ينشئ حلفاً . ولكن الشيخ هذه المرة أيضاً ، آثر التأجيل .

استنار رفضه السيد جيوم فأخذه الحماس وطفق يلح عليه  
فأثار حفيظته وطرده من مجلسه بعد أن أمره أن يكون في  
المستقبل أرجح عقلاً وأكثر صوتاً لمزلق لسانه .

وفي ذات ليلة ، بعد أيام قلائل ، كان الفتى نائماً ، فإذا به  
ينفض جالساً على الفراش يحاول إقضاء صورة كانت تروعه .  
شيء غامض يحدث هناك بجانب العاصي ، شيء لا يعرفه بالضبط ،  
شيء وضيع فاجع كان يعضه ويقض مضجعه ، شيء لا أمل في  
إصلاحه . هل تتألم ؟ هل تموت ؟ أم هي على حال أسوأ من ذلك ؟  
هل هي سعيدة ؟ هذه حالات متماثلة عنده لا يستطيع أن يرجح  
إحداها على الأخرى . ولم يذق في هذه الليلة طعم الراحة فذهب  
إلى الحمام فما ظفر بالراحة فقد قر في يقينه أنه تنبه إلى نبوءة  
خطيرة . وأخيراً فكر وهو فاقد الوعي : خير لي أن أذهب إلى  
السراي بالرغم من أن هذه اللحظة غير مناسبة فألتبس من  
السلطان البت في إرساله إلى القلعة فإذا تهاون فلا رحل بحظي  
الضئيل فاني على يقين أن هذا الصوت الباطن لن يسكت أبداً .  
ذهب إلى السراي والساعة مبكرة وحظي بمقابلة السلطان  
وقال له وهو شارد الفكر :

— إلام تؤجل الذهاب إلى القلعة ؟ لا شيء يكدر



صفوها هناك . بتريثك تمد لهما في أسباب النجاح .  
فقال السلطان :

— ما عهدنا قط أن صاحب فضل ، وسيد قوم يخضع  
لإرادة ضيفه الملحة . إنك قد نزلت ضيفاً في ديارنا ، فأكرمناك ،  
فلا أقل من أن يكون لك من حسن التصرف ورقة الذوق  
ما تدرك به صالحنا . كل امرئ يعمل لصالح جنسه والمسيحي  
لا شك يريد أن يجعل السلطان أسبق إلى مخالفة المسيحيين . أعلم  
أننى سيد الموقف وأنا وحدى الذى سأحدد موعد بعثتك .  
وأراد السلطان أن يزداد اطمئناناً من جهة الفتى فأمر  
بإيداعه فى السجن .

الويل للعاشق المسكين ! مرت به أسابيع وأشهر وهو فى  
غياهب السجن ، تعرض له مخيلته صوراً محزنة ، وتتمثل له طلعتها  
التي لو رآته لأنكرته . ولا يزال كذلك حتى ينبثق الفجر فإذا  
بإيمانه القوى وجراءته الحية يكتسحان هذه الأشباح الليلية .  
إنها تعيش ! ما أسرع ما كان يرتقى فى أحضان هذه الفكرة كما  
يرتقى الغريق فى قارب النجاة وقد أهدقت به الكوارث من كل  
جانب . إذن قد نجت ، مثله ، من الزوبعة ، وسوف يلحق بها  
ورأسه فوق سطح الماء مرتفع وصدرة حديد يقاوم جرجرة

الحيط، وذراعه مفتول يشق به الموج . سوف يدرك الشاطئ ،  
ويمسك بها بقبضته وهي على أشد ما تكون سعادة ونضارة ،  
لسرورها بلقائه . ماذا جد في أمرها ؟ لا شيء يغير من إخلاصها  
له . كل شيء حيال الحب الحقيقي في الحياة القاسية ليس إلا زبدا  
يذهب جفاء . إنه يرفض كل ما كان يدور بخلد . إنها نحلة ، على  
حد تعبيره ، قد انغمس شطرا منها في خلية من العسل وتتوقع  
منه تحريراً وانتشالا .

ومضى الفتى زهاء ستة أشهر منذ قدم إلى دمشق . وفي  
ذات يوم أرسل السلطان في طلبه وقال له :  
— لدينا أنباء من القلعة . إن هذه الفتاة ترشد المسيحي  
إرشاداً . وهم يطلبون الآن عملاً من المسلمين يساعدونهم في  
إصلاح أراضهم فأنا أتوقع أنهم يرسلون إلينا في طلب محالفتنا .  
فاذا تم ذلك فستحمل إليهم جوابي . فالتزم السكون حتى يحين  
الوقت وإني أحسب أن هذه الأشهر المنعشة قد هدأت قليلاً من  
حماستك فواصل حياتك الهادئة في منزلك ببردى ويهمني أن  
يعرف الرسل الذين سيفقدون إلينا أنني أعامل بالحسنى زملاءهم  
في الدين .



والشدائد علمت جيوم أن يكون سياسياً . خيماً السلطان  
 تحية عميقة وهو يخفي في نفسه ثورة من القلق الذي أثاره هذا  
 الكلام . وانسحب بعد أن أكد ولاءه للجالس على العرش .  
 أفاء إلى مسكنه ، غير مكترث بشيء ، مصمماً على تقصير أمد  
 بقائه ما استطاع ؛ فكان يقول : « إن الحياة قصيرة جداً ولا  
 أستطيع أن أؤخر في قلبي ناراً وقوة دون ثمرة . فغانية الشرق  
 تتطلع كل يوم إلى طريق دمشق وتلومني على تغيبني حتى هذا  
 الوقت . »

وبعد خمسة أيام تأهب في جنح الليل للهروب من دمشق  
 دون أن يرافقه أحد فاعتلى صهوة جواده وطفق يحثه فيعدو في  
 ظلمة الليل ويمر بالمحطات في مسالك مفزعة تحدد الواحة من جهة  
 الغرب وما زال حتى لحق بقافلة فاستأذنها في اصطحابه فلم تجد  
 مانعاً من ذلك .

ها هو ذا ، في طريقه إلى القلعة ، زائراً بالشجاعة ، مفعماً  
 بالثقة أنه سينقذ غانية الشرق ! وكل صباح تبدأ القافلة في  
 سيرها في الساعة التي يصطرع فيها النور والظلام ، قبل أن  
 تنتهي النجوم أمام الشمس . ويأخذ جيوم الدهش كيف

لانشجوه روعة السماء الفاتنة وهو يراها بعيني رأسه بينما يهتك  
شغاف قلبه نار من النظرة وبرق من البسمة وهو لا يراها إلا  
في تصوره .

ظل تهاجمه طوال النهار بواعث متلاحقة من الألم والامتنان  
ثم يتغلب على اليأس بقوة الرغبة . فكانت هواجسه أشبه بسفن  
ترسم خطوطاً في البحر العميق ، وتلوح شرعها وتخفى على الأفق  
البعيد ، ثم تهب نفحة من السماء تكتسحها جميعاً ويظل بحر  
الآلام كما هو هائجاً بالآمال . كان الفتى يُبحر خلال الكشبان  
متلهفاً إلى مهاجمة الغز حتى يهتدى إلى حله ، لهذا كان يلعن  
كل لحظة من التأخير .



اقتربت القافلة من القلعة ، وكان من المفهوم لديها أنها  
ستدخل القلعة دون عناء ، ذلك أن المسيحيين قد رغبوا في إحياء  
الرخاء وتجديد الازدهار الذى قضوا عليه فى أول الفتح فكانوا  
يدعون عمال المسلمين من كل حذب وصوب وكان على علم بذلك  
سلطان دمشق نفسه . أما جيوم فكان فى مأمن من اكتشاف  
أمره فى القلعة فسكران القلعة القدماء تشبثوا فى عاصمة الغزو فضلاً  
عن أن الآلام قد شفقته والسجن قد أحاله حتى أصبح لا يتطرق  
إلى ذهن أحد أن هذا البائس المسكين هو نديم الأمير المشهور .  
إلا أن صعوبة واحدة خطيرة تعترضه فى طريقه : كيف يدنو من  
القتاة وكيف يختطفها ؟

أمر عجيب ! ياله من بشرى ، فلم يكد يدخل البلدة حتى  
رأى تغيراً كبيراً قد طرأ عليها : النواقيس تدق وما كان يعهدها

هناك من قبل . كأنها تحب أن تبارك ما ينعقد في ذهن الفتى من صور وآمال . وهذا شعب جديد من الفرنجة والعرب يتحلى بثياب الأعياد فيسأل جيوم واحداً منهم فيعرف أنه بعد ساعتين سيمر موكب شكر للعدراء على الفوز وسيلحق بالموكب الفرسان مع الأميرات اللأى تنصرن . والآن يحتفل النساء والفرسان في الحصن .

لم يسأل جيوم أكثر من ذلك ، ومضى في زهته . ودخل بساتين الأمير وقد أصبحت الآن مباحة للجمهور بفضل هؤلاء الغزاة الذين زهدوا في اللذائذ القديمة وإن كان لم يمنعهم هذا من تجديد أكثرها . ومر الفتى على الظلل ورأى المواضع التي منت عليه بصورة من السماء ، ولكن السعادة الغامضة المتقنعة لم تعد تبث في كل شيء نوراً كما كانت من قبل ، إنها أشبه بخاتم ثمين ضاع منه حجره الكريم . وانبرى إلى الموضع الذي كانت غانية الشرق تملؤه بأغانها وحيث كان ينفرد بالجلوس معها فكأن جبهما منشور نصب عينيه ؛ تخيل رؤيتها وقد شغلت حيزاً ضيقاً من الظل ، فوق الأعشاب المغمورة بالشمس ، يوم أن نامت بين الشجيرات في حنان دافق ، وفي هذا النور الضاحك طرف من فستانها الحريري الأحمر قد أدركته الشمس فامع على خضرة



العشب . كانت مطرحة في استرخاء تحكى اللذة والطهر : حاجبان طويلان ، وأهداب هادئة مسبلة وذراع على جيدها وكف مرصعة بالخواتم ساقطة على خدها وخصل من شعرها فلم تكن هذه البساتين إلا لتزيد الفتاة حسنا ونفاسة ، أشبه بشاطئ حول بحيرة من اللذة الإلهية ، ولكن الآن . . .

ما أشد هذه الدقائق الحزينة التي مر بها جيوم وهو يطوف بساتين القلعة المتهدمة تصطرع فيها نشوة الماضي وقلق الحاضر . القلعة مكان صغير ، فكان من اليسير أن يجد الشاب وقتا ليطوف في الأماكن التي يحفظ لها أجمل لحظات في حياته فاستطاع بذلك أن يحبي شيئا فشيئا كل دهشاته وأمانيه ، لذاته وما آسبه . تبع الطريق التي كانت تسلكه غانية الشرق مع ايزابلا الوديعه آتيتين من الظلة ، ثم تجاوز الأسوار ووصل إلى مادونها من صخور كان يقف عليها الزعيم المسيحي الذي نظرت إليه نظرتها الغريبة . وقبل مرور ساعتين وجد الفتى نفسه بين المتفرجين أمام السراى حيث كانت غانية الشرق — بلاشك — تترين بعد انتهاء الوليمة .

انتظر انتظاراً ممضاً ليرى تلك المرأة التي تستطيع بابتسامه واحدة أن تبعث الروح في هذا البلد الميت ؛ كان يهيجس :

لو رأيتني من إحدى النوافذ لمدت يديها إليّ ولصنعت من الحيل في المساء ما ييسر صعودي إلى غرفتها . ولكن جيوم كان يكن أمراً يضايقه هو ذلك النظام الدقيق والأمن المستتب اللذان يسودان في القلعة ، فذلك يدل على رضا عام وخضوع تام .

أخيراً تضاعف دق النواقيس معلناً حلول الموكب فخرج الموسيقيون من الحصن فالتقساوسة ، فالفرسان ، فالنساء ، وكلهم يسرون في البساتين على طول النهر . وبين المسامات اللأئي أصبحن زوجات للمسيحيين تتألق غانية الشرق الحسناء بنور ملوكي كنسر صغير ذي جناح مهيض ، يطير بين أسراب أقل منه اقتداراً . تصور كم يكون أثرها في عاشقها حين يراها مزدانة على طريقة نساء فرنسا ! كانت تلبس فستاناً حريراً موضوعاً بالذهب رافل الذيل ، وعلى جبينها تاج يتألق ، ومسحة من الخجل جعلها أكثر تقاسة وجمالا . فإلى من تحتاج امرأة هذه محاسنها ؟

نفذت آلام مروعة في قلب جيوم فقد لمح مجدداً دونه كل مجد وحفلا كان يتمنى لو شاركتها شعورها فيه ، إن ما طرأ عليها لا يدل له فيه وحين فاجأها لم يجد فيها ما يسمح بالاعتقاد بأنها لا تزال تذكره . كانت تشيح بوجهها هنا وهناك مدلة بالظهور منتشية بالحسن والشباب كما كانت من قبل . فكيف لم



تعرفه ؟ كان في لحيته الكثيفة وشعره الأشعث ونظره المحترق ما قد يخفى معالمه ولكن أما كان من الواجب على القلب الوفي أن يتنبه بقوة هداة ، ويكشف بوحى إلهامه ؟

واستولت عليه لحظة يأس فجعل الموكب يسبقه ثم انتبه ، فجرى حتى حاذاه وأخذ يرافقه ، وقد غلب اندفاعه على ما فاض به قلبه من ألم مرير . يمشى مشية الناس بين الجموع المتلهلة ، قد عرف نساء الموكب ولكنهن تغيرن فأبدلن بسرويلهن ملابس المسيحيات وأخذن منهن شيئاً من التقاليد والأخلاق . وحملن ، كما كن من قبل ، مسابيح من العنبر طوقن بها معاصمهن إلا أنها تنتهي في هذه المرة بصلبان ، وأمسكن في أيديهن كتب الصلوات المزركشة بالذهب واللاصق . هن الآن أكثر روعة بما أسبغ عليهن الموكب والقساوسة وترتيل الأناشيد الدينية . ومع هذا فما لا شك فيه أن هذه المسحة الدينية لم تنقص شيئاً من فنهن في الحياة في هذه الأشهر الستة .

مر الموكب في الحدائق المخربة على ضفاف النهر فأشبهه في ذلك ما كان يراه جيوم وهو صغير في قريته . هذه صورة من قرية فرنسية تنتقل إلى أطلال بستان سورى . ما هذا السحر على ضفاف نهر العاصي ؛ المسلمات يغنين ترانيم العذراء ! وجيوم

يقسم على نفسه ليستعيد سعادته . ويحيط الموكب رحاله تحت  
الأرز ، وللمرة الأولى يتأمل غانية الشرق بين حريمها . في هذا  
المكان ، على العشب الذي كان مفروشاً بالبسط ، أقيم المذبح  
المقدس واستطاع أن يتأملها وهي جاثية في بريق خمارها ، وإلى  
جانبا زوجها القائد .

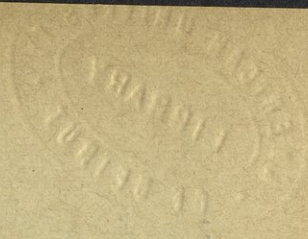
وفي أثناء المباركة التفت القسيس إلى الشعب وهو يمسك  
بيديه القربان المقدس ؛ ولم يكذب يرفعه حتى صلى جيوم لجادة  
الفضل ، وخطاياها ودعا السماء أن تتقبل أمانيه الغرامية .

ودق ناقوس المساعد مؤذنا بتخليص كل الحاضرين ،  
فانصرفوا إلا هو ، فقد ظل جاثياً أمام غانية الشرق طالباً من  
قرارة روحه أن تجود بنظرة . كان يؤلمه أنها لم تنتبه إليه  
بطريق الإلهام . وأخيراً رمقته الفتاة ولم يلبث حتى أسبلت  
جفניה على إنسان عينها الواسع . فظلت لحظات كأنها عمياء ،  
دون أن يبدو على وجهها السافر شيء . ومدت يدها إلى سيدها  
أمير أنطاكية على مهل وهي تنحني له ، وقد لفت نظر القائد  
الصارم حركة رقيقة منها أثارت دهشته ، كأن الفتاة تدّرع به من  
خطر فهو يبحث عنه فلا يراه . ماذا ؟ هل كانت قد فقدت  
صوابها ؟ أم أسرت إليه بنداء أو رجاء ! ورفعها بيديه كالذي



اشترى نعمة فظل يرافقها لا تسمح لنفسها أن تلقى بنظرة عابرة على صديقها القديم .

تصور ما أصاب جيوم من ألم حين شاهدها على هذه الحال .  
فهي تصحب المسيحى الذى كان قد تركه من أجلها ، والذى تخلصت من حبيبها لتلحق به ؛ جمد الفتي في مكانه واعتزته دهشة وحشية واستغرق في آلام صارخة : « أنها تختاره أمى ومن دونى ! » كان يحس أن هذه الفكرة تطعنه في بصره وسمعه وتنزل بأضرار رعشة قاتلة تتخون جسده كله ؛ وأدرك في تقزز بغيض أنه كان يفضل ألف مرة أن تموت . وقال في نفسه : « الآن أصبح لدى من الحنكة والتجربة ما يعادل مائة عام ، وقد قرّ في يقينى أن الرجل لن يجد حبا أميناً وفيّاً إلا في حب أمه فالأم هى المرأة الحقيقية التى توجد بين النساء جميعاً . »





لا تستطيع أرواحنا أن تتنفس إلا في الحب السعيد ، فهي  
 تنغمر فيه ، وتحمل نفحات جديدة من اللذة والغناء . فإننا إن  
 آثرنا أشخاصاً على أنفسنا وأحببنا أن نتصيد قنصاً طاهراً  
 فكفلنا له السعادة والهناء وابتهلنا إلى الله بالشكر والدعاء ، فما  
 أشد ذلك استرواحاً لنفوسنا ، وانقشاعاً لضبابنا ، وكشفاً —  
 أظن — لما بعد الحياة !

هذا التفاؤل في الحب والكمال الذي يبيت في الروح  
 والجسد الطمأنينة التي تجعلنا محبوين ممن نحب ، كل ذلك  
 قد حل محله عند جيوم فراغ مروع . كل الطاقة الروحية  
 والجسدية ، المدخرة في نفسه قد أريقت دفعة واحدة ،  
 كزق قد شق بطعنة من خنجر . ونفذت قوة البأس وأخذ

منه الجهد مبلغه فغلبه النوم فاستلقى على الحشيش .  
أخذ الفتى يهدى بالأوهام والأحلام وهو يردد اللعنة على  
هذه الأرض التي تنكر الجميل . وبدأ الليل وخيل إليه أن صوتاً  
يهمس باسمه ورجع إليه حسه شيئاً فشيئاً ونظر فتبين وجهاً  
ينفخ عليه وأحس بدفء هادئ يصدر من فم جميل يتحدث  
إليه بصوت خافت وحنان متهافت . عرفها ، فقد كانت ايزابلا .  
وسرعان ما صب عليها جام غضبه :  
— لماذا أنكرتني هذه المرأة ؟ هل هذا يجوز ؟ أهكذا  
تستقبلني ؟

ايزابلا

إنها أرسلتني إليك .

جيوم

لقد تخلصت مني .

ايزابلا

كانت تخاف .



جيوم

منى ! ما الذى تتصور أن تخشاه من صديقتها ؟

ايزابلا

فوجئت بإحجام غير منتظر .

جيوم

غير منتظر ! ألم تكن صداقتنا مدى الحياة ؟

ايزابلا

إن مبادرتى بالحضور إليك دليل على أنك لا تزال عزيزاً لديها  
وأن إرسالها إياي للبحث عنك برهان على ما بينكما من مودة خالدة .

جيوم

ترسلك طبعاً ! فهى من غير شك لا تريد أن تضحي بدقيقة  
من الوقت الذى تخصصه للقائد المنتصر . ما الذى نلت منها منذ  
سنة أشهر ؟ انتظرتها على نهر العاصي وانتظرتها فى دمشق ، ثم

جئت هنا ؛ وكم كنت آمناً مطمئناً حين جئت ! ولكن لم  
ألبث أن رأيت على وجهها ما يعبر عن الخوف منى والحب للقائد .  
ألا ليت السماء قد حالت دون مجيئى إلى القلعة ، ليت أن هذا  
الصوت الغادر لم يأسرنى بسجره القادر . إذن كانت تتحدثنى يوم أن  
أخذتنى بين يديها وأسرت إلى : « حين أكون على فراش الموت  
سأناديك أو أسرع إلى فراشك ، وأودعك الوداع الحنون . »  
كل هذا حفزنى على الحضور اليوم ، ولكنى أحس أنى أسبب  
لها قلقاً ومضايقة فى ملذتها الجديدة .

ايزابلا

لا تكن جائراً ، فلم إذن حضرتُ هنا ؟ أما كان أسلم لها ولـ  
أن أبقى فى السراى ؟ فما كان من الحكمة أن أخطر بالحضور  
وأن أبادر إليك ، فأسبب لك ولأنفسنا الهوان والخطر .  
قدّر هذا العمل بعاطفة فوق الصداقة المجردة ! وإذا عرفت  
فقدّره بطريقة مؤثرة . . .

جيوم

أعرف أنى كنت منتشياً بإيوائها فى قلبى فما كان منها إلا أن



ربضت فيه لتلدغني وهي الآمنة ، ثم غادرتني خلصة وأنا في أشد  
الآلم ، وأنت أيتها المرأة الشريرة ، فأنت مثلها تتكلمين في حذر  
واحتراس فاسكتي ! ولكن لا . . . امضي في حديثك . ما كان  
أجدرها أن تحضر لتقصه بنفسها إلا أنها أمة من إماء  
مولاهما .

إيزابلا

أمة من إماءه ! وهل تلومها على ذلك ؟ إنك قد هيأت لها  
الحياة ، وإنها لاشك عائدة إليها ، وستتبع ، بلا حذر ،  
رغباتك المندفوعة ، إنها استطاعت بحيلتها ، أن تكون  
حرة وأن ترتفع عن ذل الإماء ، وأن تكسب التاج الذي  
تركته يسقط . وهذا كله ، كما تعلم ، لا ينال إلا بشيء من  
المجاملة واللباقة .

جيوم

أنا لا أستسيغ التناقض بين استقبالتها الذي رأيته وكلامك  
الذي أسمع ، فلو قد رأيت بعيني رأسي أنهما في هذه الحياة الجديدة  
على وفاق تام

ايزابلا

إنها لم تخلق لتسام حياة دون حياة الملوك فهل يهون عليك  
أن تخفض من قدر التي كنت تحملها المكان الأرفع بين النساء جميعاً؟

جيوم

ما كنت أتوقع الصدمة التي رمتني بها .

ايزابلا

كنت تستطيع أن تتوقعها .

جيوم

ما كنت أعتقد ذلك . كنت أعتقد أن وجهها — مهما  
كلفها الأمر — سيُقبل عليّ وسينصرف إليّ ، وحدي ، بطلاقة  
لا يرتق إليها الضعف .

ايزابلا

إذن لكنت معجزة أن نطل فتاة حرة كهذه بين غزاة  
كهؤلاء .



جيوم

كنت أعتقد أنها ستكون هذه المعجزة .

إيزابلا

إذن لكنت تكون معجزة فذة .

جيوم

حقاً ! معجزة فذة ! ألم تكن فذة في حسنها ! وجهها من الذهب والفضة وزرقة السماء ، ومن الشباب والحياء ، واللذة والميس . لقد رأيته منذ لحظة ، فسرت موجة من الحزن المرير فأحالت قلبي ذابلاً ذاوياً . لقد كانت لي الفردوس الحى . كانت لي أملاً فوق الأرض ، وموسيقى كلها سحر ، اقتبست من وجهها الحلو ومن نظراتها كل الآلام البشرية . ليتها تموت ، لئن أتمنى لها الموت أيسر عندي من أن أتنازل عن بقايا سعادتنا . أتمنى لها الموت أو نحيي معاً سعيدين !

كان يضم إيزابلا بين ذراعيه في أثناء هذا الحديث ، مسبل العينين وهي تطبع على وجهه برفق ، قبلات دافئة ، ثم تقول وفيها شئ من الذعر :

— لا تنس أنى ايزابلا ولست غانية الشرق .  
 — أنا أحبها وأكرهها . لقد بلغ منى اليأس مبلغه . كان  
 لديها وسيلة أخرى لقتلى ، كانت تستطيع أن تقتلنى باللذة وهى  
 تقبلنى بقبلايتها .  
 كان الفتى يذكر عنها كل ما فيه حنان ورقة ثم يوجه إليها  
 العتاب والسباب كما لو كانت مائلة أمام عينيه ، وهو بين ذلك  
 يشعر ، على الرغم من نفسه ، بأطياف حلوة تعبر فى خاطره حتى  
 يصبح شعوره الحانق عليها حاملاً ولذة وتضطرب روحه ويتباعد  
 وعيده حتى ينتهى إلى أمان ملحة :  
 — على مروج سعادتى ، وفى هذا البلد الذى ذقت فيه  
 السعادة مرتين ، استقبلنى شخص واحد ! هو أنت يا ايزابلا ،  
 فأشكرك وأحبك .

### ايزابلا

إننا جميعاً نحبك حب الصداقة ولكنك معها وحدها ترتبط  
 بحب متبادل ، باق حتى لحظة الموت ولكن هذا لم يمنعك من  
 أن تقسو عليها . كنت تقول إنها ملاك ولكنها الآن فى نظرك  
 شيطان ، تضعها فوق قدرها حيناً ودون قدرها حيناً آخر .



وما هي إلا امرأة ، كجميع النساء ، تود أن يكون حبيبها قوياً  
 فاسمع رسالتها إليك ، إنها تشكرك لحضورك وكم تأخرت عنها .  
 إنني لم ألتها حين عجزت عن الاحاق بك إلى دمشق . هل كان  
 يسرك أن ترى عصفور الجنة ينزح عن سماء أوطانه ، ويطأ أزقة  
 المنفى صاغراً حقيراً ؟ أما اليوم فأنا الذي جعلتها تعدل عن  
 الحضور هنا ، في هذه المروج الخضر ، فان كان لابد من أن  
 يموت أحد فلتكن ايزابلا الشقية ، أما غانية الشرق فسوف  
 تأتي إليك ، وسوف تضمها بيدك ، وهانذا جئت لأبحث  
 معك عن أسلم سبيل إلى مقابلتها .

## جيوم

هل أعتقد اليوم في صدق كلامكما ! كنت في وقت مضى  
 لا أشك لحظة واحدة في صدق كلمتها . ولم يكن يدور بخليدي  
 أنها تستطيع أن تكذب عليّ وما كنت أتمنى إلا طاعتها ، فلو أنها  
 كانت طلبت أن أختار الموت بعد التمتع معها بلذائذ الحياة — لما  
 ترددت أن أفعل وأنا أعلم أني مع ذلك مدين لها . أما الذي حدث  
 بعد ذلك فشئ غامض . ومن الممكن أن يكون فهمي خطأ .  
 فأنا وحدي أفكر بينما أنتم اثنتان تفكران في أمري . فإن كنتما

يوما ما قد تعبتما تفكيرا فليس لدى صديق وفيّ يعينني  
على تعرف الأشياء بوضوح أما إذا تأملت فهذا لا يكون بغير  
أسباب .

### ايزابلا

استمع إذن ، الآن لتكن سيد عقلك فأول شيء تفعله ألا  
تطوف في المدينة فتسبب هلا كنا جميعاً وسيؤويك احد رجالنا  
وهو قريب من هنا ، على نهر العاصي ، رجل مسلم يتمنى خدمتنا  
ونحن سنحاول زيارتك عنده .

### جيوم

وهي معك ! احضرا كلتيكما . واستمحي لي بأنك وحدك  
لست كافية كما أن من الحق أنها وحدها ستسبب لي الاماً  
كثيرة .

### ايزابلا

سنكون معاً ، إنها ستحدثك وستبرهن لك على حبها ؛  
ستحضر لرؤيتك وتضع في أصبعك خاتم اللذة .

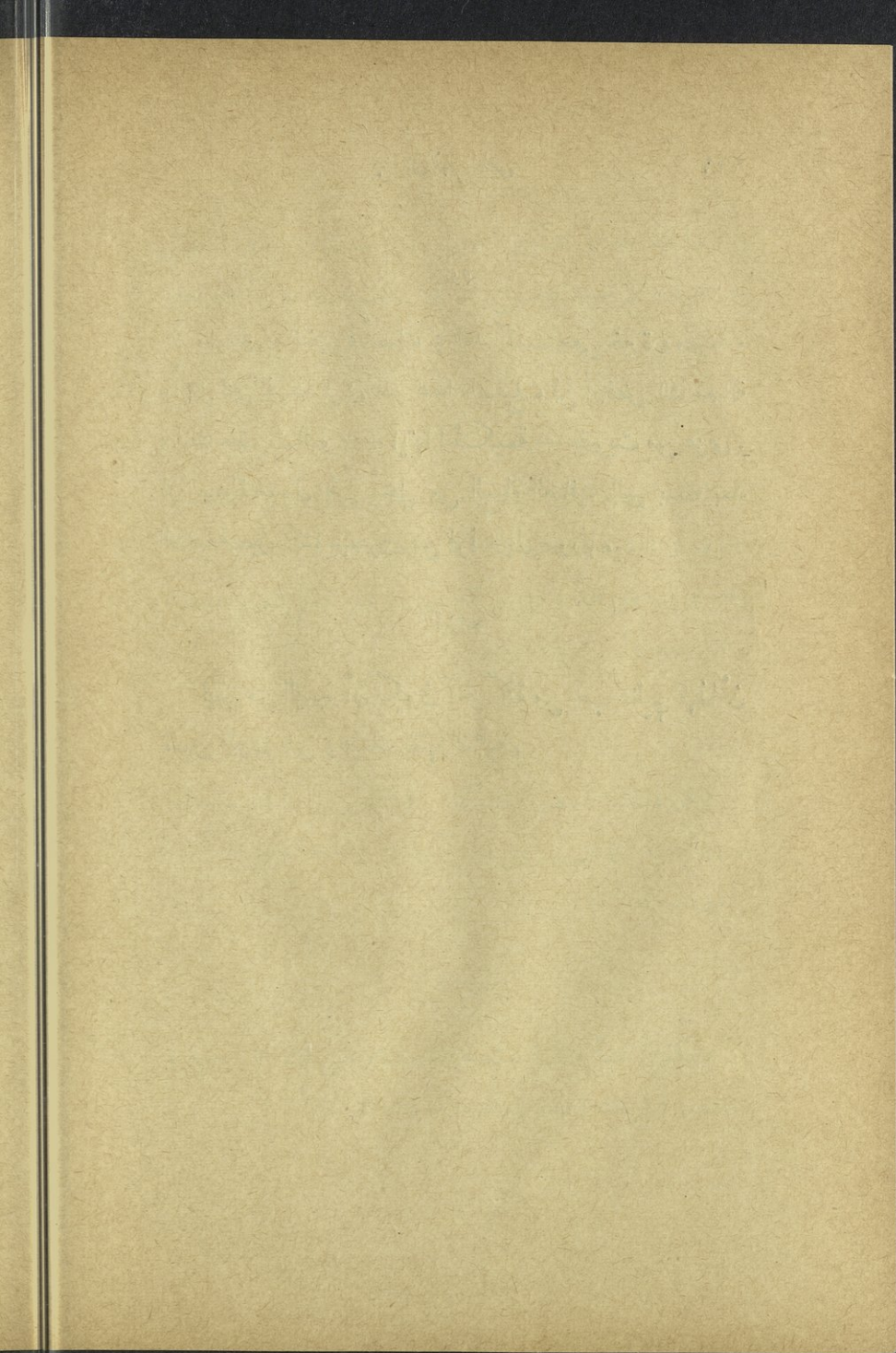


## جيوم

سيدتى ، أختى ، أحبك ؛ لقد كنت معى خيرة ومعينة ،  
 وأجمل شئ فى ذاكرتى هو هذا الصنيع ، لن أرفض لك مسألة  
 وإنك حضرت اليوم — أيتها الحكيمة — فقويت من عزمى .  
 إن صداقتك لى لهى أحلى من السماء الصافية التى بدت بعد  
 العاصفة حين كنا مبحرين من فرنسا إلى سوريا .

## ايزابلا

ليس من اليسير أن تكون آخر كلمة من حب عظيم كهذا أن  
 تتمنى الموت لئى وهبتك ثقتها الغالية .





ومنذ فجر ذلك اليوم ، توجه السيد جيوم إلى المسلم  
الفقير الذى أشارت عليه به إيزابلا ، ووضع نفسه فى خدمته  
عاملاً بسيطاً .

كان عليه أن يحرق الأرض ، ويزرع فيها بقولا تروى بماء  
العاصى وبالرغم من أنه كان لا يملك من الحديقة شيئاً فإنه كان  
يحيطها فى عناية بسور من طين ، ثم يشتري بشر ما يكسبه من  
الأجر قوته اليومى ، وبالشرط الآخر ما يبني به كوخاً يستقبل فيه  
حبيبتيه . هذه الحياة بما فيها من إنهاك قوة وضياع جهد كانت أمراً  
تافهاً فى نظره ، فهى التى سينشد عن طريقها ثمرة آماله البائسة .  
كان ما أكثر تفكيره ، وهو بين الصخور والشوك ، وتحت  
الشمس التى لا ترحم ، وفى أثناء العمل الذى يقدحه ويهبط قواه ،  
فى اللذات التى وهبتها غانية الشرق ، والتى ستبعثها من جديد

بعد قليل . فهو يرصد الرسول القادم إليه الذى يعلن له زيارة  
الفتاتين فينبرى حينئذ إلى نهر العاصى يستحم ، ويقطف  
الزهر ثم ينزلقان إلى الكوخ بما فيهما من وهج الحزن وسحر  
النشوة .

أقبل المساء وتراحت أمامه بقعة خالية يجرى في وسطها الغدير  
وإذا بالفتاتين تقبلان وقد بدا عليهما إعياء شديد . وتحمل  
إزابلا سلة على طريقة كراثم السيدات اللائى يزين البأسين . ولم  
يكذ القى يلحجهما حتى بادر الفتاة بأن أمسك بمعصمها صائحاً :  
— الآن أنت فى قبضة يدي ! متى نرحل ثلاثتنا إلى دمشق ،  
أو طرابلس أو أى مكان بعيد عن هنا ؟ لا تضيعى وقتنا فى نقاش  
طويل ، أخبرينى فى عبارة واضحة إذا كنت تريدين الذهاب معى .  
— لقد جئت بنفسى إلى جانبك .

— وهل متأهبة لأن تتبعينى ؟

— ما كان ألد العيش لو أن هؤلاء الغزاة لم يحضروا بعد !  
أقسم لك أننى أريد من سريرة نفسى أن أقضى حياتى كلها تحت  
حمايتك المخلصة .

— آه يا خادعة ، لقد انتظرتك ست ساعات ذات ليلة  
منكودة على نهر العاصى وستة أشهر أظع منها فى دمشق ، ورجعت



إليك ، فإذا بك ترمين تحت سمعى وبصرى فى أحضان  
سيدك الجديد .

تكلم بهذه القسوة مما أصابه هذه الآونة من حمى ضاربة وألم  
مض وتلف باد على وجهه . ولكن غانية الشرق كظمت مأصاها  
من قسوة وتقدمت نحو مهاجمها وجهاً لوجه وقلبها وحديثها  
يشتهلان :

— إننى حضرتُ الآن ، ولست أشكو من هذا الحصى  
الذى يتلظى ، والموت الذى يهدد حياتى ، والشمس التى تحرق  
جسدى ، والشوك الذى يمزقنى ؛ إننى من أجل حبك ألقى  
بنفسى إلى تلك الحصيرة البالية . فما أجد منك إلا كل لوم  
وتقريع . فأى جرم قد ارتكبته ؟ لقد خضعت للقوة وحملت  
بالرغم منى على سرير سيدى الجديد . هذه جناية خارجة عن  
إرادتى فهل ينبغى أن أقتل عليها . أنت الذى تركتنى فى ذل  
اللحظة التى يقسمون فيها الأسلاب والغنائم ، فكنت غنيمة  
وضيعة ، وأنت الذى أسلعتنى إلى شهوات مواطنيك المسيحيين  
الجامحة . انه القدر الذى تصرف بقسوة فى إزهاها وفى .  
فلا تلعنا على أمر لم تستطع أن ترجمنا منه ولم تقدر أن تدافع  
عنا دونه .

— ما لك تحوطين نفسك بسياج من الغموض وتهربين من  
أسئلتى الصريحة ؟ أجيبى ؛ لماذا لم تلحقى بى لا عند نهر العاصي  
ولا فى دمشق ؟

— وهل كان ذلك فى استطاعتى يا جاحد ؟  
أحيطت عيناها بهالة من السواد وتغير خُاة وجهها المتسق :  
« وأية نبرات ، وأية لوعة تفيض فتستجيب مع آلامى ! من  
أى شىء أبدأ بالشكوى ؟ من فقدان الحبيب أم من أهانتى  
فى بلواى ؟ ... »

وسرعان ما أهوى بيده على هذا الشجر الجميل ليكفّ صوتاً  
يريد أن يتعمده بسوء :

— لا يكن مجيئك هنا سبباً فى عذائى ومجالاً لاستخدام  
سحرى ، وليكن شفاء من حبى وانقضاء لآلام غرامى . لاتتحدثنى  
عن شقائك ، فلقد وجدتكم حين رجعت إليكما راضيتين مزدهرتين  
فى حياتكما الجديدة .

— هل تفضل أن نكون لعستين ؟  
— إن كان لا بد من الصراحة فنعم أفضل . كنت آمل أن  
أجذك بأثمة ، وهأنذا أراك تحبينه وتنكرينى حين نظرت إلى  
بوجه لا يشر عليه .



- أنت الوحيد الذى أحببتك أيها الرجل الظالم .
- ولكنك واثقة به وحده تدجين حبه وتخطين وده .
- إنه كان طيب القلب ... دعيني يا إيزابلا أذكر الحقيقة .
- ولهذا فقد اصطفاك ؟
- ليس فى استطاعة مخلوق أن يصطفينى ، إننى أعرف كيف يتضرعون إلى .
- فى المساء الذى تركته فيه كنت أنتظرك وأعتمد على الوعد الذى أعطيتنيه ...
- لا .
- كانت ليلة لا أنساها . لقد كشفت لى عن حقيقة ...
- وماذا كنت أستطيع ؟ إنه كان طيب القلب نحوى .
- ما الذى كنت أستطيع أن أعمل ؟ إنك عجزت عن إنقاذى ،
- فعلام تلومنى . لماذا تحول عني نظراتك ؟ لم تنظر إلىّ بهذه
- الآلام ؟ إنك تريد أن تقتلنى غما . لست أخفى عليك شيئاً .
- ليتك تتصور كيف كانت البساتين ملاءى بالجنث ، والحصن
- منهما بروائح الموت ، والنساء قد طارت عقولهن حرصاً على البقاء ،
- يتشبهن بالفزاة الثائرين ، يرجونهم على قلق ورعب أن ينفذوهن
- من صدمة الموت وهول الموقف . لست تعرف إلى أى حد كان

كل منا فاقداً لوعيه ، غير متمالك لأعصابه . فإذا بالقائد يرفق بى ويحاول كل شىء فى الوجود فى سبيل إرضائى ، حتى استطاع أن يؤثر فى نفسى . لقد كنت اعتقدت أنك مت ، لهذا كنت أفضل أن أموت .

— تفضلين الموت ! فلماذا إذن لم تهربى معى حتى تنالى حظك من الموت أو السلامة ؟

— لم تحملنى قدمائى إلى الفقر والظلام من قبل .

— حملتك على سريرى ؟

— أين كنت حينئذ أنت الذى تتكلم بهذه القسوة ؟ على

نهر العاصى ! أليس كذلك ؟ فما كان ينبغى لك أن تسهر على

نهر العاصى ، ولكن على باب غرفتى المذهبة تحرسها وتذب عنها .

وهذا القائد ، هل نسيت ؟ ألسنت أنت الذى مدحته لى .

أتذكر إذ كنا على الأسوار ذات مساء ؟ ألم تخبرنى أن المسيحيين

يحترمون النساء أكثر من العرب . هل تنكر أنك أسررت إلى

يوماً : « أنه ليس من عملى أن أقتل رجال بلادى . » من هذه اللحظة

فهمت أنك لم تفكر أن نكون معاً على تمازج تام . ففي الوقت

الذى أضخى فيه بسيدى الشرعى من أجلك أراك تؤثر على

إخوانك من بنى جنسك . أنت الذى حكمت بمعاقبى بمدحك



إياهم . أنت الذى تركتنى ، ومع هذا فكن على يقين أنك أنت  
الذى أنشدته من دونهم . أقسم لك أنهم إن يكن فى خصالهم  
ما أعجبني وحببهم إلىّ فما ذلك إلا لأن هناك تشابهاً بينك وبينهم .  
كان الشاب يصيح فى دعر وقنوط :

— إيزابلا ، إيزابلا ، أتسعينها ! كيف يعبر حديثها عن  
شئ من الحقيقة ما أشبهه بما تشيره فى مخيلتي من حلاوة وعذوبة  
ذكريات احتفظ بها عن الكنيسة . ثم لم أفسر ما فيها من  
تحول وفى ذراعيها أسمع نبضات قلبها وأستقبل حرارة جسمها  
وأشعر أنها تناصبتى الخلاف والخصام . إننى ألعب يا صديقتي  
مع أفعى وديعة ، ناعمة ، بريئة ، داهية . فإذا برأسها ينبطح  
ولسانها يندلع . إنها أفعى ، ويجب أن أتمنى لها الموت أو من  
الخير أن أتمناه لنفسى وتعيش .

لم تنبس غانية الشرق بكلمة فكانها تشعر باعتداد وكبرياء .  
وصاحت إيزابلا :

— ألا تستطيعان أن تمالا قسطاً من السعادة ! تذكرنا  
قون الشاعر :

إن الحياة تقاد بفرسَيْن :

فرس النهار الشهباء ،

وفرس الليل السوداء ،  
وتركض بفرسيها نحو الفناء .

والآن ياسيد جيوم إن حبيبتك بين يديك ، هنا ، وليست  
في مكان آخر . وهى مقبلة عليك بلطف ومودة فلا تجبها  
بحقد وشر . هل تعتقد أن من المعقول أن تدفع أنت ماتريده  
حتى الموت ؟

قذفت غانية الشرق بمعطفها على الحصيرة الوضيعة المغطاة  
بالورد وقالت وهى تجذب إليها حبيبها :

— إذا لم تكن أنت الشخص الذى أحبه فلا كونه أتعس  
من نعيمة جرباء ، حرمت من فروتها فظلت عرضة للمطر وبرد  
الشتاء . لاى شىء تعاتبني ؟ تستطيع اللبوة أن تحمى نفسها من  
هجمات الصياد وتستطيع أن تحمى جوانب عرينها من جيوش  
الفرسان . ولكن كيف تستطيع ذلك إذا ما تسرب النمل فى  
كهفها فغزا أعضاء جسمها وكساها بمثل أبسطة الصوف ؟  
ما الحيلة وقد تركنى صديقى وأخى ، والذى يحمينى ؟ بطبيعة  
الحال ارتدت أفسارى إلى هنا مهيضة الجناح . فبأية قوة تستطيع  
أن تحمئى إلى دمشق ؟ لقد حاولت أن تسبح فى السماء وأن  
تدوّم فى السحاب ولكنها انحدرت أخيراً إلى أعماق القلعة .



هذا ما كان نبت في قرارة حسى ، فى خلوتى ، ويجرى على شفتى  
وأنا أحدث إلى إزابلا على انفراد ، إن أفكارى الصميعة الحقّة  
وكلامى الحر الخالص لا يتعلّقان إلا بك ولا يتجهان إلا إليك .  
لن أستطيع مهما أوتيت من رقة ، وحديث وفيض سرور أن  
أعبر لك عن حنانى تعبيراً كاملاً . أى فراغ تركت لى ! لولا  
إزابلا ، نبراس حياتى الهادى ، ما كنت أطيق فراقك لحظة  
واحدة ! إن القدر يمتحننا وعلينا أن نتغلب عليه . خذنى بين  
يديك ، أسند خدك على خدى ، دع شعرى الفيّان ينتشر  
على وجهينا .

— بعد هذه الأيام الخالية يا غانية الشرق ، وجدت بعد  
لاى صوتك ونظراتك . كل ما ينبعث منك ينفث السحر  
ويبعث على الألم . كم كان عذابى حين وقع نظرى على هذا القصر  
وتلك الردهة وهذه المروج وتلك البقاع حيث مضيت تتحملين  
الحياة بعد أن أزمعت عنها الرحيل . كم كان ألمى حين رأيتك  
فيها سعيدة ! هل من الجرم أن أسب أيامك الحلوة مادمت غائبة  
عنها ؟ أليس الجرم هو أن أقبل بالرغم منى ، ما تقدمينه  
من قربان .

وكان الوجه الجميل والعيّان المتقدتان والطلعة المتجهة إليه

تمنعه من الاستمرار في شكوى أصبحت كاذبة فطفق العاشقان  
يسومان اللذة التي تضفي على روحهما هدوءاً وامتزاجاً بينما  
كانت إيزابلا منهمكة في إعداد الطعام الذي أحضرته في سلتها  
لأنها كانت تعلم أن الألم واللذة لا يمنعان العاشقين من شهوة  
جيدة بعد الخلاص من ألم العذاب ونوبة الانجذاب .

عاد الحبيبان إلى رشدتهما وحاول جيوم أن يعود إلى فكرة  
الرحيل إلى دمشق أو طرابلس حيث يجدان الراحة والسكينة  
ولكنه لم يفلح ونجحت غانية الشرق في أن تتفادى كل جواب  
صريح وتركته وهي تجعله يقسم أنه راض كل الرضا وأنه لا يجب  
أن يصيبها شيء من الشقاء بتفكيرها في شقائه .

ونظر إليهما من خلال بوص الكوخ وهما يبتعدان ، فتألم  
مما أظهرتاه من حذر مبرر منعهما من الالتفات إليه لأداء تحية  
الوداع . ومضى يفكر في أن غانية الشرق كانت تبدو سعيدة  
فلماذا ؟ لأنها امتحنت قوتها على غضب نائر أم لأن الأناقة  
والرشاقة قد خالقا على هيئتها مظهر السرور ؟



وفي الحق كانت غانية الشرق تحس بالشقاء لأن حبسها  
يتعذب من أجلها ولكنها في الوقت نفسه ، كانت تشعر باللذة  
لأن هذا العذاب الذي يبرهن على مدى حبه لها ، يبعث في قلبها  
هدوءاً سحرياً يسلمها إلى شعور بالنشوة والاعتداد — كانت  
على يقين أن الفتى ، في هذه الفترة ، قد دلهه الحب ، وألح عليه  
الشاعل ، فأصبح أكثر منها هياماً ، وأشد وجداً ، فلم يتح له  
ذلك فرصة التفكير في شيء غير الحب ، شاغل يرد من الدم  
ويهرب من سلطان العقل ، وعذاب ناشئ عن حوار وزاع  
يضطربان في دخيلة نفسه .

الكلمات التي كانت نطقت بها أو تجنبتها ، والنظرات التي  
كانت أخفتها أو أظهرتها ، وسكوتها ، كل ذلك كان دلائل  
وإشارات لا ينفك يستحضرها في ذهنه ، ويحذلها مستغرقاً في

ألم مرير . فهو أشبه بأطلال في أحد السهول ، أو قطع من تقوش خزفية ، أو قل طائفة من الجراحات . العبارة التي نطقت بها إزابالا : « يجب أن يقال له كل شيء » مهدت لبقاء أمور غامضة في نفسه ، فكان يسيطر ضوء ساطع على رأس الفتاة ، وشك قائم في قلبه . كان يبدو له إن سماء سوريا القاسية وإرادة غانية الشرق العنيدة يتظاهران على إفنائها ، وهكذا لم يبق في نفسه إلا الحب وحده يخزه ويقض مضجعه .

وفي المساء ينأى عن الغدير نحو مائة من الأمتار ، ويبدو القمر الذى يخلع على بساتين الحريم زرقة وهمجة وتصد من قلبه مناجاة طويلة للعصفور الجميل الذى تحول عن البساتين التى كانت قصصاً يأوى إليه العصفور وحيبيه . فى مثل هذه الليلة سمع الفتاة لأول مرة تزدهر روحها فى إيقاع حنون ونغم فتان ، ومنذ هذه اللحظة وقع فى القيد فجأة وتوقف عن سبيله الحر فى الحياة . تكلمى أو اسكتى يا ساحرة ، فلا يزال غناؤك يطبع آناراً عنيفة على أعماق قلبى المسمم . كم أبهجت تلك الحفلات الغزاة ، وأطربت نفوسهم ، والقضاء زاهر بالنجوم ورؤوس اشجار القلعة تتأرجح فى السماء العميقة وأضواء المشاعل تلمّ شتات الألحان والعازفين بينما تغمر جيوم بموجات من الأسى ،



وهو يتمطى في ظلمات كوخه . على أن هذه السماء والأناوار  
والألحان كانت تجعله أقل تأثراً من ذكريات تركزت في قلبه ،  
وانحصرت في فؤاده ، قضى بسببها ليالى من لسعته الأفعى ،  
يفكر في المرأة وهى ترفع يديها « أرى فوق مرفقها سواراً فضياً  
ولكنى أحس بأنها تخفى ثعباناً فى كمها الواسع » . وهكذا  
يظل فريسة هذه الصور المعادية حتى تأخذه سنة قائمة من النوم .  
وفى نيته أن يعرض عليها هذه الصور فى أقرب زيارة لها ،  
وما كان أكثر شكه فى زيارتها .

فإذا جادت بزورة وغادرته ، فلا تلبث فترة السمر والبهجة  
أن تتلاشى كما تفنى النعمة ؛ فيذهب عنه سلطانها الجميل ويرى  
أن مخلوقاً من الحقد يحيى فى نفسه ، فكان يستقبل هذا المخلوق  
الجديد بسرور عنيف فيغديه ويتعهد به فهو بعد أن تنصل نشوته  
الطارئة وينطفئ حنانه المؤقت يرجع على أشد ما يكون طلباً  
للقوة واستنشاقاً للسيطرة فيتساءل كيف يظل فى هذا المنفى ،  
وكيف أن الطيف الذى هزمه الحب لم يعد يطوف على شاطئ  
السعادة ؟

وهكذا يظل على هذه الصورة من القلق فلم يكن يجد هدوءه  
إلا فى اللحظة التى كان يمسك فيها بحبيته كالغريق إذ يتشبث

بقرص النجاة فيخضع نفسه لصوتها البليغ . هذه السكامة ، وهذه  
الوعود ، وهذا السخط ، وهذه القوة الحيوية كانت تقنع  
الفتى بقدر ما يستمر أثر الزيارة في نفسه ثم تذهب غانية الشرق ،  
وينتظر الفتى من جديد أسابيع كاملة .

هذه الأسابيع الفاصلة بين الزورة والزورة كانت ميتة ،  
يود أن يستغلها لتمهيد السبيل إلى الكوخ ، ولكن ماثرة  
هذه الحماسة الفاترة إزاء سيل الدقائق البارد ؟ كل هواجسه  
ورغباته تغزوه وتلج عليه وهو مشلول الحركة مهيض الجناح ؛  
كان يطلب غانية الشرق بكل أفكاره الخيلية وشهوته الخفية .  
كان يرى نفسه كسرب من العصافير يهيم بالطيران فيمنع بقسوة  
في شرك . فإذا مضت فترة من الزمن وبدت له حاجة ، وراكها  
رى العين ، وتيقن أنها هي ، ترافقها إيزابلا ، استحال ظمؤه  
ولذته ونشاطه الماء على ألم .

— كل شيء يصبح واضحاً سهلاً عندما تكونين بجوارى .  
نحن مجتمع شملنا وملتئم حينما يتصاعد منه ذرات من الضباب تغشى  
اشجاني ولكن كم يشف هذا الضباب عما تحته من شجن جاف  
مرعب بعد أن ترحلى عنى ! فهبيني إذن حياة جديدة يا رسول  
الكواكب فإن روحى مريضة بسوء ظنّها ، مريضة بوجه خاص ،



بذكرى سجايك الماضية ؛ اجعليني أنسى ما أعجز الآن عن  
 الحصول عليه ، لست أنكر أن عذابى يهدأ حين تكونين حاضرة  
 فشعرك النوراني ، وعيناك الوهاجتان ، وصوتك الحنون ،  
 كل ذلك يعود فيمضي من الهروب من سلطانك المستبد ، ومن  
 الإمعان في التفكير الطليق في خطاياك . آه ! ما أكثر مضايقتك  
 لي ! حين تهب النسمة فتحدث تجاعيد على السطح الهادئ  
 وتعب على أسارى وجهي وعيني ، وحين تنأى روحي عنك  
 هاربة ، فما أسرع أن تدركي ذلك وتقطني إليه ؛ إنك تقربين  
 دخيلة نفسي وتتنبئين بما أفكر فيه ، وتمنعيني من قوله . إنك  
 تقودين حبي كما يقود المرء حيواناً أليفاً بزمامه ، وتحملينني بالرغم  
 مني على الطريق الذي أود أن أخلص منه . وفي أثناء ساعتين  
 تجعلين مني شخصاً سعيداً طائشاً ناسياً ، فإذا مارحلت استعدت  
 لشردي في الألم ، فكان كل شكواي وآلامي حية كما كانت ،  
 تتنبه بمجرد بعدى عن نار نظرك وموسيقى صوتك . والحق  
 أنني أتعب نفسي باحثاً في هذه الحياة التي نقيت منها ، عن سبيل  
 أو عاطفة تقسر لي كيف تبعديني طالما تحرصين علي .  
 أتقولين « لا » آه ! كل قلبي يعرف أنك زاخرة بالرعاية متمتعة  
 بالناية ، أما أنا فلست أدوق من ذلك شيئاً بينما تحميانك

وتدفعان عنك الإلحاح الذى أموت من أجله . المباراة ليست متكافئة بيننا . فأى شيء ثابت ، أبديّ أستطيع أن أتمناه ؟ ومع هذا فأنا قانع ، لا أريد شيئاً آخر ؛ كان يجب أن تلحقى بى على طريق دمشق .

— أترك مسألة البحث مما كان يجب عمله زمن العاصفة .

والآن قد صفت السماء مرة أخرى .

— الصفاء موجود فوق دمشق ، فوق طرابلس ، فوق أوروبا ، فوق الصحراء ، فوق آسيا كلها ، ولكنه ليس هنا . سأظفر بالسعادة وسأظفر بالكون ، بين ذراعيك ، حيث كنا . ولكنك تفضلين آلامنا وتقييدك على الحرية التى نكون بها طليقين أحدهنا للآخر .

سكنت غانية الشرق وتكلمت إيزابلا

— رغباتك الضخام لا تمنع ما تريدان الاجتماع من أجله ، وإني لأرى أن من الحكمة حرمان نفسيكما اليوم مما تحاولان البحث عنه بطريقة تجعله لكما مدى الحياة .

ولكن سرعان ما استأنف جيوم قائلاً :

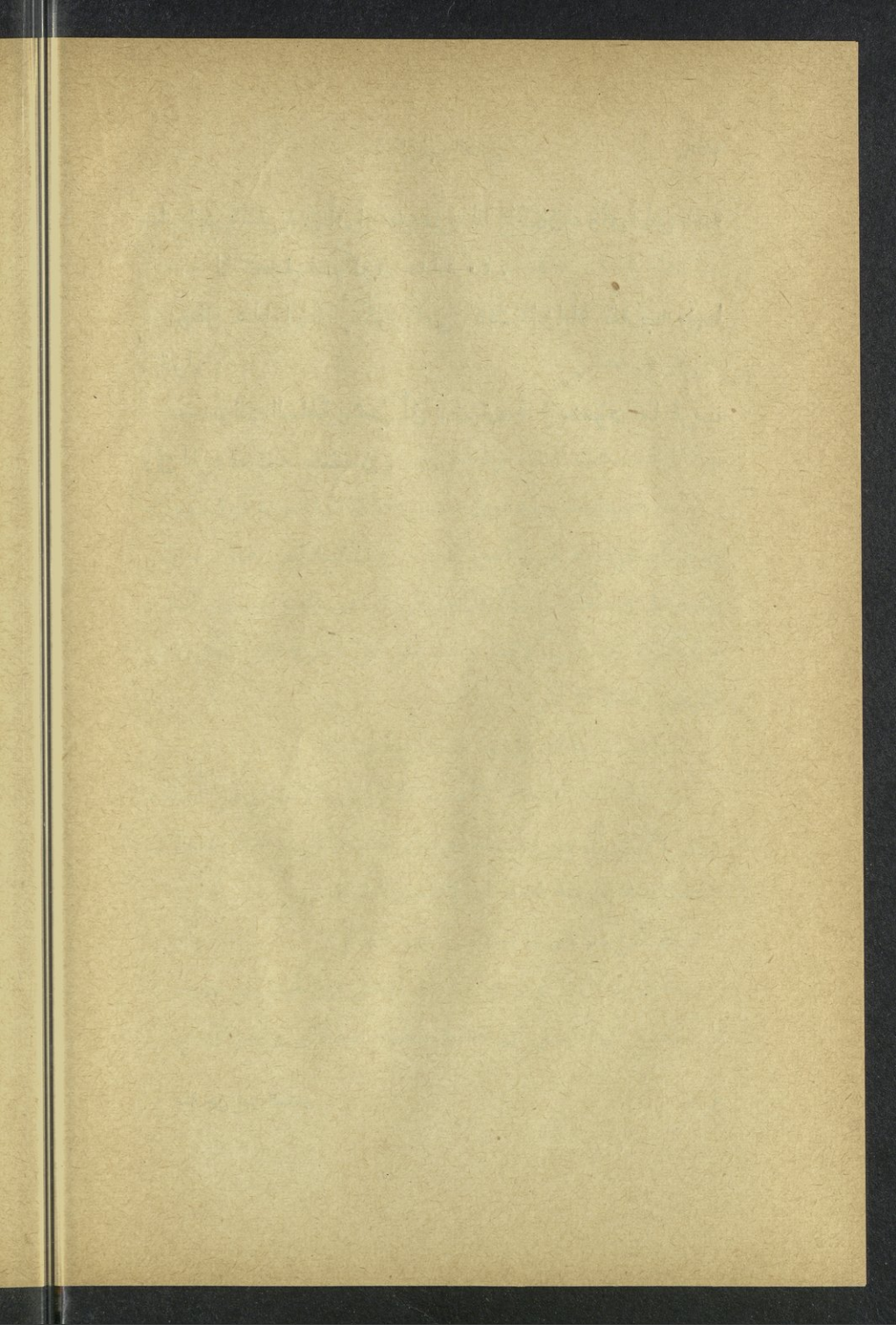
— أريد أن أكون حيّاً ، أن أدخل فى الحياة من جديد . لا أستطيع أن أطيق أن تقعا فى أيدي أصدقائى وإخوانى دون



منازعتهم ؛ لم تريد أن أرحل عن هذا المكان ، وأن ألحق بك ؟  
— لا تتعجل فسيكون هذا قريباً .

وظل هذا الحال يتكرر حتى كانت إيزابلا تقترب منهما  
وتقول :

— أظفت الساعة ويجب أن ننصرف ، وسنعود عما قريب  
وفي المرة القادمة ستتفقان .





توارد على نفس جيوم انقباض ممل م مفاجآت من الآلام  
والسرور : يحس بالآلام حين يرى فراغا مبهما لا يستطيع تفسيره  
في أخبار غانية الشرق الواضحة ، ويحس بسرور أعمق من الموت  
حين كانت تنحدر غانية الشرق إليه حتى تصل إلى مختبئه ، لم  
ترفض له شيئا مطلقا ؛ كانت تعامله دائما معاملة سامية .  
ولكنها تعيش في مكان آخر ، وهذا ما كان يجعله يرتجف  
الما وغما .

إن الرجل الجريح لا ينام ولا يترك أحدا ينام . وفي خاتمة هذه  
الأيام صمم على أن يقول لها وقد شفه الجوى :

— إنك لا تريدن فراق القلعة ، وأنا لا أستطيع أن أبقى  
في هذه الوهدة ؛ إنك تماطينني من أسبوع لآخر ، وأنا ألح  
عليك أن تقرري مصيرنا . أنا لأقبل هذا السكون ، كان شرابنا  
سائعا نقيا فكيف أعود إلى الأبد حبا مشوبا بالقلق ممزوجا

بعدم الاستقرار ؟ ما قيمة اللذة بدون إخلاص ؟ إن لذة  
 ليس وراءها سعادة لهى لذة اليأس . يالمة اللؤلؤ والشباب  
 ويا سطوع إقبالك ، أخشى أن أسبّ كرمك السخى وأظهر  
 بمظهر الجاحد لأسعد لحظات القدر . لتكن تلك اللحظات  
 مباركة ! مع أن تلك اللحظات تتقاذفنى الآن وأنا متحطم فى  
 أشد الآلام سوادا . فى أعماق غور من روحك سمعت الشئ  
 الكثير مما يقال فى سكون هذا الغور وعرفت أن روحك  
 ترفض إنكار الشخص الذى تكتفين أن تجعلينى أحرز قصب  
 السبق عليه مع حرصك بغرور عنيف على حبه الذى يجرح كرامتى .  
 — ولماذا تغار من هذا المسيحى ، وما كنت تشعر بهذا

نحو سيدى المسلم ؟

— لم أكن غيوراً منه .

— ولكنى ملكت قلبه عدة سنين .

— إنك لم تختاريه وأنا حى فإنه كان سابقاً لأول نظرة لنا ،  
 وبعبارة أخرى لوجودنا على الأرض ، إنه لم يكن سبباً لشعورنا  
 فلم يجرمنى من أملى ، أما الآن فأنا غيور من أحلامك مع هذا  
 السيد الجديد . والمرء فى سبيل تحمل الآمال التى تفيض حول  
 الحب ، والتجلى الذى تجبوه لنا الحياة ، والذى ينشأ من شئ



نحبه ، يجب أن نضع قوة العاشق ونشوته في وجهة واحدة  
تبدو لنا خالدة ثم نصرهما ونوجههما متحدتين في بناء يهمننا  
أكثر من حياتنا المحدودة ؛ ولكي نأمن أن أمواج الهوى  
الحزينة لا تبتلعنا فمن الواجب ألا يعتريها الركود وأن تكون  
نهرًا كبيراً يحمل آمالنا إلى شواطئ جديدة دائماً لا إلى مستنقع  
لا تلبث أجمل زهرات اليوم المنسلخ أن تفسد مياهه . ولكنك  
مع شخص آخر تتمتعين بهذا الحب المثمر فما هو نصيبي إذن ؟  
— نصيبك أني الأطفك أيها الجاحد .

— وأنت من خلال ملافتي تؤسسين معه هدفاً مشتركاً .  
إنكما تؤسسان شيئاً مجتمعين ، أما أنا فما نصيبي إلا مجرد السرور ،  
سيكون من نصيبي اللحظات التي لا تكون خالدة . لهذا أرفض ؛  
حسبك هذا الظلام ! أنت التي أحبك ؛ فلا تضطريني إلى  
كراهيتك . إما أن ترحل وإما أن أذهب إلى رفقاءى القرسان  
أطلب بحراسة حبك كاملاً غير منقوص .

انتظر منها موافقة ، ولكنها ظلت صامته لا تتكلم ، وكأنها  
ترفض .

حينئذ ، بعد دقيقتين من الصمت ، أقسم بصوت مهيب :  
— حتى ولو أدى الأمر أن تموتى موتاً فظيماً أنت التي

أفضلها ألف مرة على نفسى ؛ سأذهب إلى القلعة مكشوف الوجه  
 خجلاً من أنى خضعت لك دون نضال ردىاً من الزمن سأخاطر  
 بكل جراءة حتى ولو قدر لنا أن نموت معاً . ليحمننا القديسون !  
 لقد انقضى التأجيل سينفذ القدر المحتوم .

قالت ايزابلا :

— يا إلهى !

قالت العربية :

— إنه سيهدم كل ما بيننا .

— لا أريد بناء مصنوعاً بالباطيل .

— أيها المجنون ، أما إذ لا بد من الموت فلنمت معاً ؛ إننى  
 معك أريد الموت أو الحياة على ألا ينحط قدرى وتنزع مكانتى ،  
 لست أخفى عنك شيئاً مما أفكر فيه . ستعرفه إذا لم تعمك  
 الحقيقة فى شمسها الوهاجة ، إننى أمتلك هنا الملك ، السلطة  
 الإلهية التى تعلو على كل سلطان . لا أريد أن أتنازل عن هذه  
 النعمة . ومن الحق أيضاً أننى لا أستطيع أن أعيش بدونك . وأنت  
 تريد الرحيل ولحاقى بك ! ولكن قدمنى كما قلت لك لا تحملانى  
 إلى أى مكان آخر . فابق هنا وسنعمل معاً على المخاطرة ! وإن  
 مجازفة الملكة خير عندى من مجازفة امرأة شريفة طريفة . وأنا



في سماء القلعة كوكب ثابت ، كبير ، وهاج ، ولا أريد أن أكون  
 شعلة طوافة أو كوكباً متشرداً أو حجراً ساقطاً . إنك تلح في  
 الطلب وتريد أن نكون كالبقايا التي يجرفها السيل ! لا مانع !  
 وسأكون في أثناء الخطر جريئة بجانبك . تعال معنا وأخبر  
 القوم كيف هربت إلى دمشق وأنت تريد أن تعيش مع المسيحيين  
 إخوانك . ولن ينطق المسامات بشيء من أسرارنا ، وزجو أن  
 تعينك الظروف فتنقذني مما أنا فيه . واعلم أخيراً ، أنني  
 لا أستطيع أن أضحي بك ولا أن أتنازل عن بسايتين العاصي  
 حيث ولدت لأملك ناصية الحكم .

— سنجازف بحظوظنا كلها لكي نظفر بحياة سماوية ،  
 وحسبي أن أخرج من هذه الوحدة البغيضة .

قالت ايزابلا الحكيمة مع تنبؤ حزين :  
 — فلنحاول إذن هذا الجنون . وقد قيل :

يظل الحكيم على شاطئ البحر ،  
 يبحث عن دمن ضحلة الماء .  
 أما المجنون فيمخر عباب البحر ،  
 بقدميه العاريتين .

ولم تتردد غانية الشرق في تنفيذ حيلتها بحزم فأشارت بأن ينصرف جيوم عن سيده وأن تذهب إلى رجل آخر مسلم ، ويوهمه أنه حضر مباشرة من دمشق . ولم تزره الفتاة عند هذا الرجل بل أرسلت إليه مطران أنطاكية وهو رجل تقي كان يعتمد عليها في أمور شتى ، حتى يمهّد السبيل لجيوم عند أمير أنطاكية . وأفضت إليه بثقتها مع اعتراف لبق . قال السيد جيوم لهذا الرسول المبجل :

— كنت مريضاً بقوة من السحر، وحضرت إلى القلعة بأمر من حاكم طرابلس سياسياً وضامناً للسلم، وإنّني لم أحارب مطلقاً رفقائى في الدين ولا وشيت بسيدى ، والآن أريد العودة إلى زملائى وأبناء عشيرتى وأضع في خدمتهم معرفتى للغة العربية . فرأى الرجل التقي فائدة هذا الفارس الفتى فصمم على خدمته فأصبح السيد جيوم أكثر ابتهاجاً فهو الذى كان — منذ أيام — يزحف في حفر مظامة ، تنهار عليه الرمال من جوانبها فتدومها عليه والآن يلمح بصيصاً من النور فما أسرع أن يندفع إليه بغريزته مهما وجد في هذا الهواء الطلق من خطر أفضع ! مرحباً بالموت إن كان مصيرنا إليه ! مرحباً بضجعة الموت المباركة !



لا ندرى بالضبط ما الذى عرفه المطران فى مغامرات السيد  
 جيوم وغانية الشرق ، ولكن الذى حدث أنه عرض أن يضع  
 سلطته الضخمة فى خدمة العاشقين . كان الحبر المبجل يتمنى أن  
 يؤسس مسيحية سوريا بكل ما كان يندفع إلى السماء ويمد  
 الشباب بالقوة والنار . شتان ما بين القوضى الراهنة التى خلقها  
 الفوز فى المعارك وبين المملكة التى يحلم المطران أن يصلحها على  
 أساس عظمة المسيح . إنه يحب هؤلاء السيدات العرب اللائى  
 تنصرن وولدن جيلا جديداً . وهو يحب هذا الفارس الذى  
 وجده ذا خبرة واسعة ، ويأمل بهذه المواد الثمينة أن يقيم  
 جسراً فوق تلك العقبات .

وفى ذات يوم عقب خروجهم من الصلاة ، أمام المسجد

القديم ، الذى أصبح كنيسة ، تقدم إلى أمير أنطاكية وهو  
يمسك بيد السيد جيوم ويقول :

— سيدى ، لقد سمعت بطريق الصدفة اعتراف هذا  
الفارس الذى حسبته أول الأمر مسلما ، إذ يرتدى ملابس  
متواضعة . وقد قص على حكاية عجيبة سأعيدها إذا سمحت على  
مسامعكم . إنه فارس مسحور لا يستطيع هو نفسه أن يفسر سر  
هذا السحر الذى اعتراه حين كان فى بساتين العاصى فى زمن  
مضى ، وقد جاء إلى القلعة رسولا من سيده حاكم طرابلس .  
وظل هذا الفتى يذبل كلما بعد عن هذه البساتين . وبينما كنت  
تحاصر المدينة كان عذابه الأكبر أن ترك المدينة كيلا يريق دم  
مسيحى ، وهام على وجهه كالتائه الشريد لا يلوى على شئ .  
وها هو ذا يعود إلى المكان الذى بهره سحره طالبا من الإله  
الحق أن يعينه ؛ فإن هذا مرض لروحه يجب أن نساعد على الشفاء  
منه . وإنى وإياه نطلب منك أن تقبله من ندمائك لكي يجد  
راحة وسيكون فى الوقت نفسه خادما وفيا .

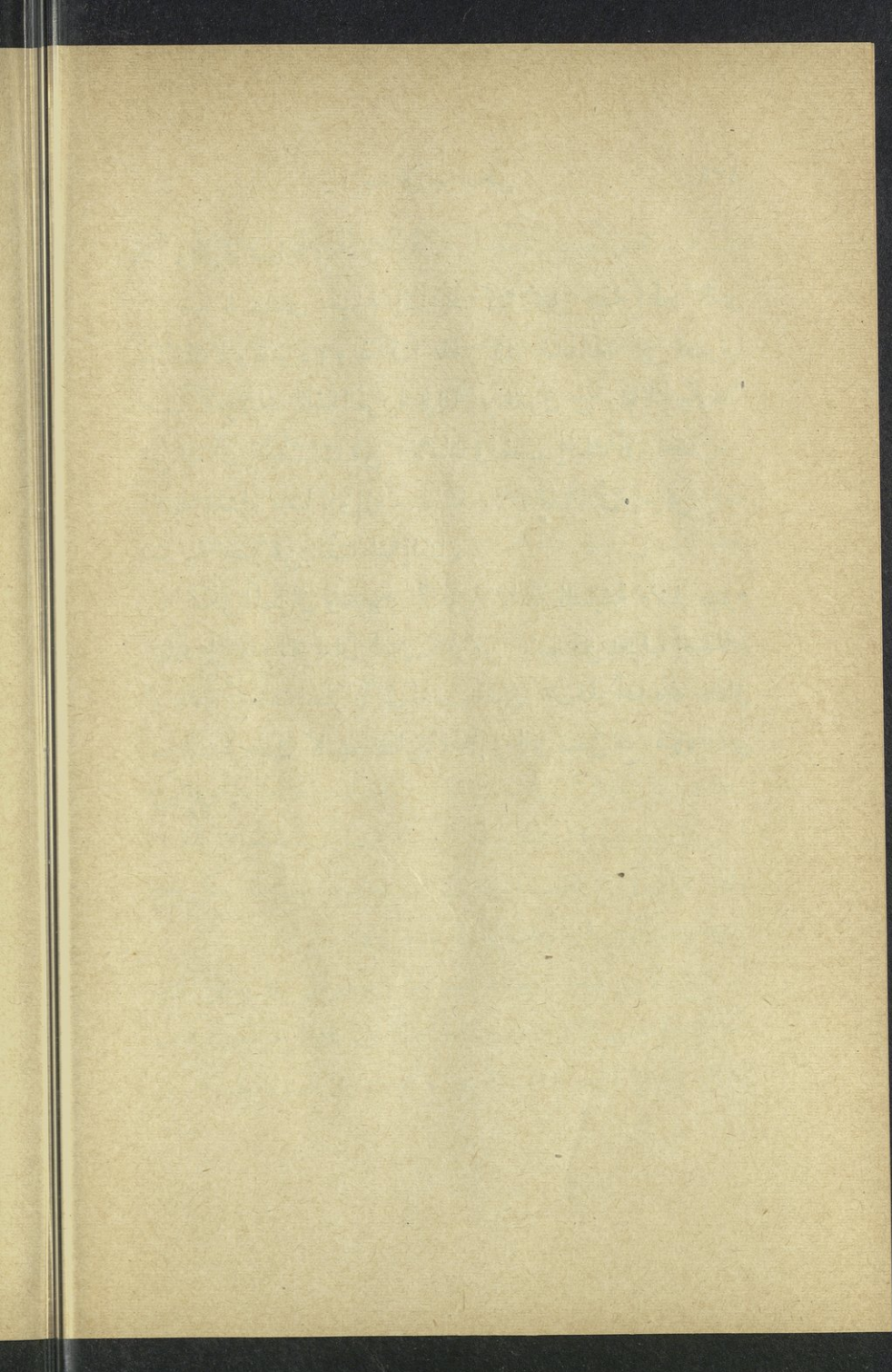
سمع الأمير هذا الرجاء فابتعد بضع خطوات كما يفعل الملك  
الحازم ، ونادى الأمراء ذوى الحزم الذين كانوا يخرجون عقب  
الصلاة وأسر إليهم حديثا قصيرا ، ثم عاد إلى السيد جيوم .



وقال له جهارا :

— ياسيدي جيوم إننا إذ كنا نجل هذا الحبر الذي يرافقك ، ونقدره ، وإذ كنا نقدر لك خدماتك التي قصرتها علينا كمعرفتك باللغة العربية فإننا موافقون على رجائك ونرجو من الله أن يخفف لك من آلامك ونطلب إليك أن تحضر من الليلة للعشاء معنا . وإن سيداتنا ولا سيما اللائي يعرفن اللغة العربية ليسرهن انضمامك إلينا .

شكر المطران وجيوم الأمير لإجابته اللطيفة وسلم جيوم بيده على جميع الفرسان الذين كان من بينهم من يعرف أصدقاءه وأهله . ثم قاده المطران إلى المنزل الذي كان قد أعد له باتفاق مع الفتاة حيث كانت تنتظره الملابس التي تتفق مع مكانه الذي رد إليه .





وحان وقت العشاء فتوجه السيد جيوم إلى الحصن وأدخل  
غرفة النافورة التي يحمل لها ذكرى قديمة حين كان يحضر فيها  
نساء السراى ليسمعنه وهو يأكل مع الأمير ويقص له بحماسة  
ساذجة غرام تريستان وإيزولت . ما كان أجل هذا اليوم  
وأمتعته ، وما أشدها ذكرى لزمان جعل قلبه ذابلاً ذاوياً ! فلما  
حيا الأمير ذهب لينحني أمام غانية الشرق ونساء العرب وقد  
رددن التحية بانحناء مصطنع وهن يكظمن الانفعال الذى سببته  
عودته إليهن فلم يمد عليهن أنهن يعرفنه فقد أظعن كلام مولاتهن .  
ولا غرو فهي التى حققت لهن النجاة من المحن بذكائها . اجتمعن  
حولها وتهاقن عليها كأسراب من الحجلان أذعرها الصيادون .  
وتصدر الأمير المائدة وغانية الشرق بجانبه والمطران على  
يمينها . وكانت المائدة منسقة على الطريقة الافرنجية ؛ فالنساء

مختلطات بالضيوف لسن نائمات على الوسائد بل جالسات حول المائدة . وجلس السيد جيوم في طرف ناء يتألم إذ أحس بعودته إلى الحياة وله كل شيء في يده كما كان من قبل .

تحدث أمير أنطاكية والمطران والفرسان في هدوء وعنف عن مشروعاتهم المزمع تأسيسه وهو تكوين مدينة نصفها سورى ونصفها أفرنجمى . وكانت غانية الشرق تفهم وتتملق هذه المطاعم بمهارة عجيبية ؛ كانت تتجلى عبقريتها في أبهرها ورشاقها الطلقة التي تسطع على جميع الأشياء . ومع ذلك كانت تبدو بسيطة طيبة نحو كل فارس من هؤلاء الفرسان الذين كانت تعاملهم أصدقاء قدماء ، كانت تتحدث إليهم ضاحكة حتى مع أقلهم قدراً فيترك حديثها أثراً طيباً في نفوسهم . ولا غرو إذا شوهدت نظراتهم تتعلق بإعجاب على وجهها الكريم البشوش . وما أشد اعتقاد كل واحد منهم أنها ملك نزل من السماء ، اجتمعت فيه كل هذه الخصال الطيبة ، فضلاً عن جمال فذ نادر .

حتى ذبوع صيتها كان مصدر ألم للسيد جيوم ! فلم يكن في وسعه أن يلوم هذه الأعجوبة الفذة ، فهو لم ينجح في أن يحقق لها الأمان والسلطان ، أو بعبارة أبسط لم يستطع أن يكبح جماح الفرس ، وهى تعدو عدواً سريعاً وأنفاسها تتصاعد دخاناً ، في



حقل مترامى الأطراف . هل هذا الذى يجلس فى أقصى المائدة يستطيع أن يدعى أنه يحب الملكة حباً صحيحاً معترفاً به ؟ أحسب الفتى مكافأة له أنها ترحب به فى سريرة قلبها ؟ هكذا كان يفكر ، ولكنه لم يستطع أن يحتمل منظر هذه الأعمال التى تشارك فيها سيدها الجديد والتى تثمر من ثمار الزهر والفاكهة ما كان يريد أن يقطفها معها .

وبعد العشاء رفعت المائدة وبدأ الموسيقيون يمزفون عزفة الرقص ، فرقصت غانية الشرق مع كثير من الفرسان وهى لا تكترث لجيوم لأنها كانت تريد أن تبعد كل شك ما استطاعت ، ثم تخلل الرقصات بعض الأغاني والأقاصيص الغرامية والهزلية فلم يسبقها أحد فى هذا المضمار . غنت كل القصائد التى كان يحبها جيوم فأثارت فى نفسه ، فى هذه اللحظة القصيرة ، ذكريات لآحادها ، وكدست فى قلبه حياة من الآلام . هل كانت تتعمد بذلك إثارته أم كانت تريد إعجاب المستمعين ؟ عد الفتى هذا العمل نفاقاً وخيانة . فقدماً كانت العبارات فى نظره تتطير فى رقة وعذوبة من شجرة إلى شجرة فى البستان ، فأصبحت كلماتها اللطيفة لطف الهواء ، الأليفة إلف الحمام أمراًباً من الغربان تحوم على سعادتهما . كانت تلحّن ، بدون كلام ما ، تزفر به

من الآلام ، فلمست بذلك نغيات في كل مرة أثلجت قلوباً متألّمة . كان جيوم يرى معشوقته قطعة رائعة من المرونة الحية ولكنه كان يحس أنه أكثر وحدة ووحشة من أيام دمشق ولياليه في الكوخ على نهر العاصي .

وبعد أن شارك المستمعين في مدح الفتاة قال لأمير أنطاكية :  
— إنى أذكر بعض الألحان الشهيرة التي أعجبتني في رحلاتي ،  
ويا حبذا لو غنتها لنا هذه السيدة كما فعل المغنون الذين سمعتهن في دمشق ، فهل تأذن لي أن أطلب إليها ؟

فقبل الأمير وقال السيد جيوم للفتاة بلغتها :  
— هل تعرفين الأغنية التي تبدأ بهذه الكلمات : « قدرة عشيقتي على السكتمان تفزعني » ؟

فشخصت إلى أميرها وانتظرت أن يسمح لها بإشارة لإطاعة رجاء الضيف .

فظلت فترة أكثر من المعتاد ، في حالة إطراق تكرر في نفسها القصيدة لكي تتحقق من الكلمات والإيقاع ثم رفعت أجفانها ، قبل أن تبدأ ، تنظر إلى السيد جيوم ، فشع منها نور هادئ قوى حتى إنه استطاع أن يلمح من سياء هذا الوجه المضيء بشعاع روحى تعبير الدهشة المؤلمة الحنون .



فَعَنْتْ .

هتف المحب الجاحد :

إن قدرة عشيقتي على السكتان تفرعني .  
 إلا أن العشيقة التي يطعنها ، تجيبه بحكمة :  
 إن يكن هذا كتماناً فاحمد الله الذي جعلني قادرةً عليه ،  
 فإن أميرى قد مات وأنت واقع في الذل ،  
 وأنا لا أستطيع أن أستر وجهي بحجاب .  
 كيف تلومني على الاحتفاظ بالهواجس التي يزرعها قلبي ؟  
 هل تريد أن يسمعها الناس وهي تموج ؟  
 هذه الهواجس التي تذكرك وتحكم علينا .  
 وهذا الغريب الذي من سوء الحظ  
 يضع رأسه على قلبي الأسير في كل مساء .

أقلقت الشاب هذه اللمحة الأخيرة فقال وهو يكظم ما في  
 نفسه : لا يوجد في العالم بأسره من يحكى هذه المغنية في طريقة  
 غنائها الراقى . ثم قال لها بالعربية وهو يتجه إليها وحدها إنه أصبح  
 الآن لا يستطيع أن يسمع إلا أنشودة الموت .

جنة على نهر العاصي

فاجابته :

يود العشاق أن يموتوا معاً ؛  
 كل عاشقين يطويهما قبران متشابهان .  
 تغطيهما صخرة ضخمة ،  
 ولكن هل تحت هذه الصخرة  
 يرى العاشق بسمة الحبيبة  
 ويلمح وجهها الجميل ؟  
 إننى على قيد الحياة  
 وإن احتفاظى بشعورك  
 الذى هو لذتى ونفارى  
 لما يشجع النفس  
 ما الحيلة فى قبر هذا الغرور  
 الذى أنا مدينة لك به  
 وفى جمالى الذى هو عزيز لديك  
 وفى التضحية القاتلة  
 التى أراك تقبلها ،  
 وأنا الضعيفة ؟



فإذا أمرني عشيتي بأن أموت  
فما عليه إلا أن يفصل قلبه عن قلبي  
فاني قبل حبه لم أكن إلا ميتة .

وعند انتهائهما من الغناء نظرت إلى السيد جيوم نظرة نقلت  
سرهما من روحها إلى روحه : إنها تصمم على الحياة وتقبل  
أشراطها . وكانت المودة التي تسكنها له تبقى ثابتة تحت الموجة  
الحركة إلا أنها كانت تحتل كل البحر الزاخر . أما هو فقد  
كان يفكر بوجهه الظاهري ، وقلبه الداهل ، وتقسه المتحطمة  
بهذا الجمال الساحق الذي أدى به إلى إنكار تشكّل الشيطان في  
صور عديدة — كان يفكر : « لعل هذه ليست هي التي أحبها  
وإنما هي امرأة أخرى أسمى منها ، وإن وجود هذه ليقرب إلينا  
صورة تلك ويعطينا فكرة عنها ، فتلك الأخرى هي التي أريد  
أن أبحث عنها وراء الموت . »

وبينا هو يلوك الألم ويتجرعه إذا به يتظاهر بسلوك الشخص  
المنبسط الذي لا يبالى . ولكن إيزابلا — بفطنتها — أدركت  
تصنعه ، ورأت أن شفتيه ترتجفان غيظا ولمحت أن الفتاة العربية ،  
في هالتها الساطعة بالنور والموسيقا في حالة شقاء .

فاقتربت من الأمير وقالت له :

— سيدى هل ترى أن سيدتى غانية الشرق قد رقصت  
وغنت ما فيه الكفاية ؟ وإني أعلم أنها متعبة فى هذا المساء  
حبذا لو تطلب إليها أن تجلس معنا ، وتنادى هذا الفارس الضيف  
الذى يجيد لغتنا لكى يساعدنا على معرفة لغة المسيحيين الجميلة .  
فأسرع الأمير وطلب إلى العربية أن تستريح ثم أمر ثلاث  
سيدات آخر ، مهن إزابلا ، أن يجلسن جميعاً .

ووجد السيد جيوم نفسه قريباً من العربية فاتخذ من نفسه  
وجهاً هادئاً مبتسماً بالرغم مما يعاينه فى دخيلة نفسه ( وكم علمه  
الآلم أن يستعين بالدهاء فجعله يختلف عن ذلك الفتى الفارس  
الساذج الذى كان من قبل ) وقد عرف الفتى كيف يفهمها  
بصوت طبيعى لا خلجة فيه :

— أنت أيضاً جندى محارب إلا أنك فُدتِ المعركة خيراً  
من المدافعين عن القلعة . خرجت من الهزيمة منتصرة وها أنت  
تأمرين الجميع فى هذا المكان .  
فقات له :

— للنساء والرجال وسائل مختلفة من القتال ، هؤلاء  
يسلكون بالقوة وأولاء يتوصلن بالدهاء . ولم يكن لدينا نحن



إلا حيلة واحدة. ومن الشرف لنا أن نختار لأنفسنا عليه القوم ،  
والا ننحط بانحطاط من نريد أن نعيش على أيديهم ، ولا شك  
أننى كنت الآن فى غمار الموتى لو أننى انتسبت إلى جندى حتى  
ولو استطعت أن أجعل منه حاكماً قابضاً على مقاليد السلطان .  
لهذا فقد وجب أن أختار الأعلى مكاناً .

فقال لها بنبرة حزينة « أختار ! » وفهمت غلطتها  
وتضايقت منها .

— لماذا تنظر إلى نظرة الغضوب . لم تعلق ذهنك بأمور  
ثانوية وأنت تملك أفضل نصيب من الحب ؟ لم تلومنى على من  
أخضع له بينما أناجيك فى خلوتى ؟ . . .

وقد كان يفزع إيزابلا هذا النقاش فكانت تحاول أن  
تتدخل . قالت لها العربية :

— إنه لم يصدقنى ، إنه سيكرهنى بسبب هاجس من صنعه  
واخترعه . . . إسمع ؛ أنت السبب الذى عرفت به اللذة ، وهل  
تلومنى على استخدام عقلى ؟ هل تأمرنى بإلغاء عقلى ؟ ماذا أصنع ؟  
قال لها يأساً :

— أن تكشفنى لى قلبك بصراحة تامة .

فى هذه اللحظة اقترب الأمير :

— سيدى جيوم إنك معجب بالسيدة غانية الشرق وقليل  
من يعرف أننا بفضلها مدينون ؛ فهي التى أرشدتنا إلى ما فى  
الحصن وضمنت خزائنه لنا .

يا لها من بداية تنذر بالويل والشبور ! كانت هذه الكلمات  
كافية لأن تقتل إلى الأبد ما كان يطويه جيوم فى نفسه من الثقة  
لا مناص إذن من حدوث الكارثة . من الذى لا يحس بالدهشة  
حين يسمع خبراً مصوغاً فى أسخف عبارة تؤثر فى النفس وتغير  
القلب ؟ ومع هذا فهو لا يجرؤ على إحداث إشارة أو حركة تدل  
على ما استولى عليه من الهم والقنوط . سمع الجميع هذه الكلمة  
فهاهم الأمر كأنهم فى حلم ؛ كلمة تسربت فى أعماق نفسه فغيرت  
طبيعتها وقلبت كيانه فعل زجاجة من السم الزعاف قد صببت فى  
نافورة من الماء .

— وفى ذات يوم ، بعد انتهاء الحصار ، بينما كان المدافعون  
يشعرون بظماً شديداً ، وصلتني بطاقة باللغة العربية تقول : « لم  
يبق إلا ساعات حتى يكون الحصن فى قبضتك . فاذا دخلت  
الحصن فأسرع إلى غرفة الكنوز من السراى فى البرج الرئيسى  
ودق بابها الحديدى اثنتى عشرة دقة ، على دفعتين ، وستجد فى  
داخله امرأة هى التى كانت قد حيتك ذات مساء ونادت وهى



تلوح بمنديلها إليك . إنها ستفتح لك وتسلم إليك ، وحدك ،  
 يافارس المسيح ، حياتها وثروة القلعة » . ففعلت ذلك وبعد  
 الدقات فُتِح الباب وظهرت لى هذه المرأة مرتققة على الخزائن  
 المتألقة ، وكان وجهها الشاحب تحت تاجها يتنفس ذهول حورية  
 مبعوثة من السماء . ولكنها بعد أن تماسكت ، وهدأ روعها ،  
 بثقتها في جمالها قالت لى : « ها هي ذى خزائن القلعة كان المنهزمون  
 يريدون الاستيلاء عليها وأخذى معهم ولكنى آثرت البقاء هنا  
 لكي أقدمها إليك فإن سليفة الملوك والملكات لا تقبل أن  
 تعيش أو تموت خارج قصرها . وإنها تعتقد في سمو روحك  
 ونبل مقصدك . » فكان صوتها ونظراتها وجسمها أكثر ارتعاداً  
 واضطراباً من السنة الالهيب المندلعة في كل أنحاء المدينة الأسيرة .  
 ولقد أمرت بإطفائها واسنولى على حب هذه المرأة الشجاعة ،  
 وجعلت حسي هذه المرأة ثمرة ملوكية للفوز والانتصار .

لم يسمح كبرياء غانية الشرق أن تبحث عن مبرر لما سمعت  
 فكانت تحتفظ بوجه ذى هدوء مرعب . قال لها السيد جيوم :  
 — لم يبق لى إلا الموت . لعن الله تلك الذكريات المشتركة  
 بيننا ! ليت ما خلقك ! لا أطيق البقاء هنا من اليوم ، روحي  
 تفر مذعورة من هذه البقعة ، لا يمكن أن أتنفس فيها ، أعلم

أننى سأكون أحمق إذ أسلم نفسى بيدي ولكن هذا الطيش هو أقوى من العقل . فلنودع حياة الخضوع ، ولندخل بقوة وعنف فى ميدان هذه الآلام .

انتهى ! لقد مَجَّ هذه الحياة وأصبحت شدة كراهيته للفتاة باعثاً له على أن ينفصل وحده إلى الهاوية فلم يعد يود أن تشارك معه فى شئٍ وآثر الوحدة فى الموت على تلك الزمالة المنبوذة والاشتراك البغيض

قال لها بصوت هادئ بالعربية :

— يامن خلقت من دم الأفاعى !

واتجه إلى الفرسان الفرنسيين وصاح بصوت عال وهم يملأون القاعة :

إذن ياسادى ، ففتحكم لهذه المدينة كان نتيجة خيانة مدبرة وثمره اتفاق جبنكم مع خيانة امرأة مارقة .

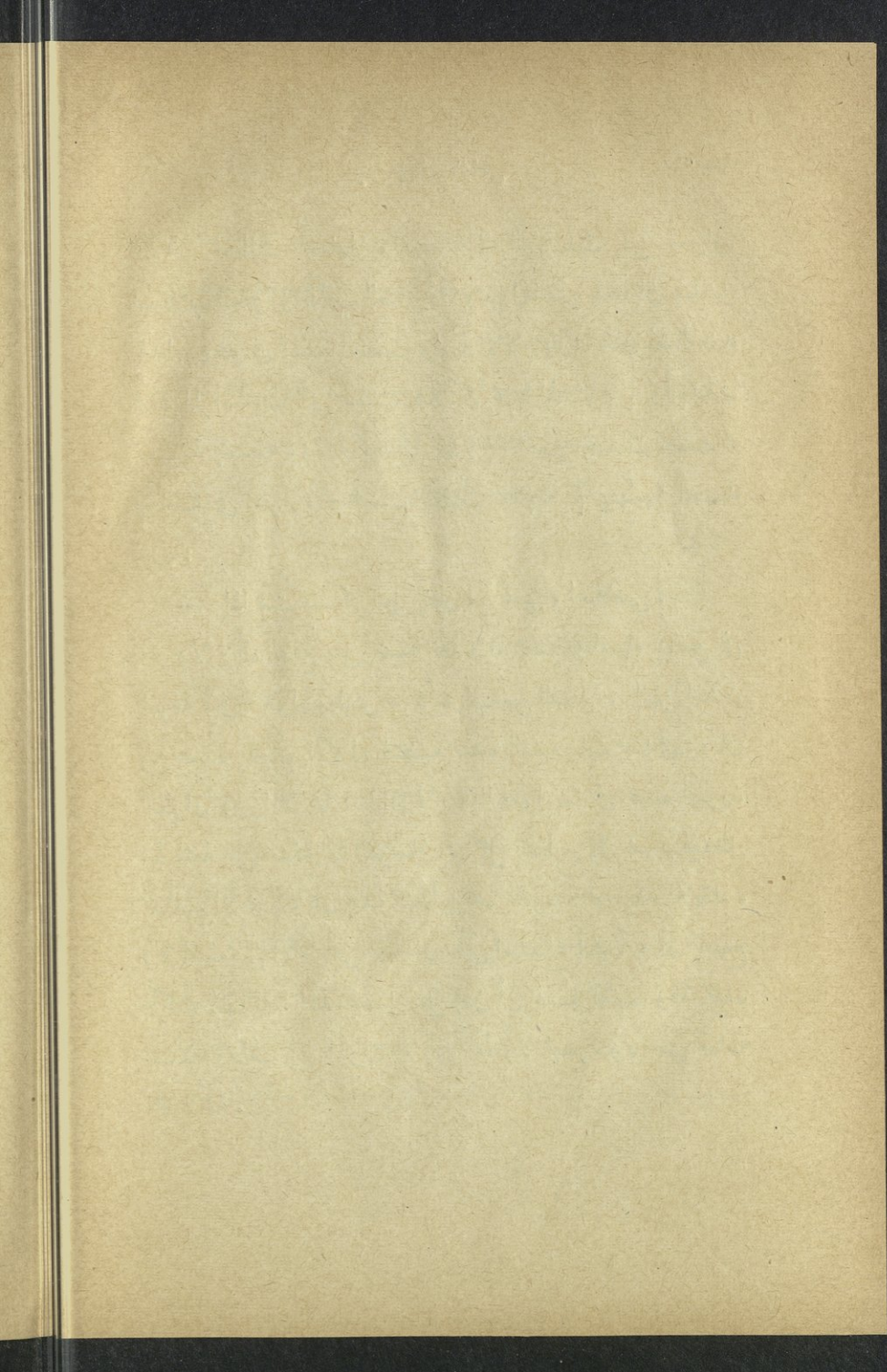
وما نطق بهذه الكلمة حتى قذف أحد المدعوين كأساً ثقيلة أصابته فى جبهته وطرحه على الأرض تتصبب منه الدماء ، وانهار عليه كثيرون بالضرب ! . . . وفى الحال ارتمت غانية الشرق على صدر الرجل القاسى ، ارتمت كنمر صغير ووضعت صدرها على صدره ، وتلوثت بدمائه التى تسيل من جبهته ؛ سقطت معه على



الأرض فعملت بعملها بواذر الغيظ التي بدت من أسراب  
الكلاب العقر والذئاب الضارية . وحاول الفتى عبثاً أن يناضل  
اعداءه وهو في تشنج الغضب ونوبة الآلام وربما كان نضاله ضد  
هذه المرأة أيضاً التي سببت هلاكه بحبها المشؤوم . وأحدثت  
العشيقة بحسبه وزمته بيديها كما تزم الأفعى بحلقات جسمها ،  
وحاطته في حرارة وهجست بكلمات ملتهبة لم يفهما أحد  
غيره :

— إذا مت فلتكن على يقين من حي وإخلاصى .

ولا يزال يدفع عن نفسه هذه الملائقة والنساء يطفن في  
الغرفة ، في ذهول وطيش ، كأسراب من النحل . إنهن يخشين  
من عودة الذبائح الأولى فتضيق هذه التضحيات سدى . كان  
المطران وايزابلاهما اللذان لم يفقدا صوابهما في هذه الثورة  
الجامحة التي اندفع بها الفرسان ، كل يتسابق إلى ضربه فيعطل  
بعضهم الآخر . وكان هذا التعطيل هو الفرصة الوحيدة للانتقاذ ،  
وكم استعصى الأمر على المطران حتى استطاع أخيراً ، أن يسمع  
كلماته المهدئة ! فقد حصل على إذن أن يسلم المتهم وقد تلف  
جسمه ودلف إلى الموت ، إلى الجنود ليحرسوه حتى ساعة  
المحاكمة .





حمل الحراس السيد جيوم وقذفوه في حظيرة ، إذ لم يكن  
يوجد سجن معد ، وعلقوه من يديه في قبة معلف من المعالف  
بطريقة تجعل قدميه لا تلمسان الأرض ، ويديه تحملان ثقل  
جسمه كله . ثم انصرفوا ولم يأبهوا لاغلاق الباب جيداً لأن  
الفتى كان في حالة احتضار

وما كاد الحراس ينصرفون حتى كانت غانية الشرق وإزابلا  
تتسللان إلى الحظيرة بين ترحم وبكاء ، وحيرة ملتبهة . أرادت  
أن تفك الحبل الذي يُشْنَق فيه ولكنهما لم تستطعا ، ووفقتا  
إلى جعله يتعرف عليهما ، وضمت غانية الشرق خصره بذراعيها  
وحاولت أن ترفعه ولكنها عبثاً ما حاولت ! فبركت إزابلا على  
الأرض ورجت المسكين أن يضع قدميه على ظهرها لعل في ذلك  
تخفيفاً لبعض آلامه .

فهمس بالهفة وهو يعود إلى الحياة :

— يا ملاك الموت ! أنت وحدك الذي أريد أن أراه .

ولم تقبل غانية الشرق أن يحول ضباب — حتى في النزع  
الآخر — بين روحه وروحها الملتهبة، وأن يقذف بها إلى مرتبة  
ثانوية . قالت ووجهها الحنون المزهو مستند إلى قلب العشيق  
وهي تريده على الإجابة :

— هل تموت وأنت تكرهني ؟

— نعم وأموت متعباً بسببك .

— أخبرني كيف كنت أستطيع أن أبعد عنك هذه الآلام ؟

— كان ينبغي ألا تخونيني .

ويح غانية الشرق ! حتى رهبة الموت لا تعيرها أكثر اثنا  
ولا تقبل منها عطة واعتباراً ! إنها تجيبه قائلة :

— أتعد ذلك خيانة ! وأنت ماذا تعد رفضك الدفاع عن

القلعة ضد زملائك في الدين ؟ إنك لم تفعل أكثر من شغلنا

بدفاع سلمي زاعماً أنه لا أمل في الانتصار . لماذا ؟ آه ! إنني أعلم

أنك لم تكن تريد أن تقتل إخوانك المسيحيين وها هو ذا

دورك قد جاء . إفهم طبيعتي كما فهمت طبيعتك ! إفهم أن

غانية الشرق لم تولد لكي تقبل أن يوجد منتصرون لا تستطيع



السيطرة عليهم . ما كان من خلق أن أحيا حياة ميتة ، لتفهم النساء أو تفهم ملكة النساء على الأقل . قد تطلب إلى ألا أعيش وربما كان واجباً على كل امرأة أن تموت مع الذي تحبه ، ولكني طالما أتنفس الحياة فلن أستطيع مقاومة القوة الملكية التي تكمن في نفسي .

-- كنت أحب هذه القوة الملكية ، ومن أجلها تعذبت ، وسوف أموت . فلم يعد لي من الوقت ما أكشف لك فيه ما استعصى من الكلمات الخداعة ومن وجهك المخاتل ومما تبيّنته تحت هذه الأحلام المنتشية الرقيقة . ما من مخلوق يمر على مقربة من لحاظك أو خيالك حتى تريديه على أن تستعبد به . ضايقتني كثيراً ، يا مشعل وجودي ، ومع هذا فلم أكف عن حبك وعبادتك . سمعت قلبي حينئذ يتمم « إلى الحياة ، إلى الموت ! » الوداع أيتها الطلعة التي أعزها . ولتكن مباركة تلك التي هي أكثر منى رقة وأشد حناناً ، التي استمددت منها العون . وأتمنى أن يهبك الله من السرور ما يوازي آلامي !

— اعلم أيها الصديق الجاحد أنني وإن كنت سببت لك آلاماً فأنني كنت أحبك في كل نفس من أنفاسي ، في طعامي ، في نومي في كل دقيقة من دقائق حياتي هادئة أو عنيدة إن كنت

تعتقد أن لى فيها نصيباً . إننى حين عجزت عن أن أكون مسعدة  
لك أردت أن أكون عذاباً . فإنى لأأريد أن أسقط من حسابك  
وأغيب عن حسك وما كنت أرضى أن أكون بين جوانحك  
دون المرتبة الأولى .  
قال لها :

— الوداع هذه اللحظة التى كنا نتنبأ بها دائماً ، وقد حلت  
على ما أحب لأن مودتك ماثلة أمامى زاخرة بقلبى . إننى  
أشكرك على كأس النبىذ التى قدمتها لى فى أول مساء غنيت فيه  
ومنذ هذه اللحظة لم أكف عن نشوة السعادة والشقاء . إن  
ثمس حياتى آذنت بالمغيب وقد وضعت نصب عيني أن حبيبتي  
كانت أغلى امرأة بين نساء آسيا . وإنى عرفت بك أنوار الشباب ،  
وعرفت الآلام واللذة . الوداع يا زينة الدنيا يا سبب وجودى !  
كانت تصغى إليه وتضمه بين ذراعيها وتقبل صدره وتغنى  
بصوت سريع أمانى خالدة من الحب :

— خذ راحتك مطمئناً ، أنت الذى كنت أرتجيه فى  
بستان على نهر العاصى ، قبل مجيئك ، ثم عرفتك بعده ، أنت  
الذى عرفته لا يئأى عن قلبى حتى حين ظهرت من جديد فى  
هذه الكارثة التى نحن فيها . لتسكن مقدساً ، أنت الذى تسببت



بنوبة من الجنون في أن تضع من يدي . لأحتفظن بك في قلبي  
حتى أموت إن قدر لي أن أعيش بعدك .

— أموت وتعيشين بعدى ! لتلحقا بي فسنحيا من جديد  
ساعات سعيدة في استقرار أبدى ، لنخرج معاً من هذا العالم .  
تعالى ، أيتها الحبيبة ، شاطريني راحتي التي سأستعيدها .

وهكذا كانا يتبادلان في كلمات رقيقة مفزعة أسرار الحب  
والغرام . . . إلا أنهما الآن لم يصبحا وحدهما . فإن لدى الباب  
شخصاً يستمع إلى كلامهما وهو المطران .

لم يستطع المطران أن يبقى في قاعة الوليمة فإنه عند ما رأى  
السيد جيوم في أول يوم رآه رثى لحاله لأنه فهم أنه ذو فضل كبير  
في الإبقاء على أرواح هؤلاء النساء العرب وأنه كان بجانبهن  
بمثابة رسول للعناية الالهية . ومنذ اللحظة ترك المطران  
الفرسان في سكرهم وطلب أن يقاد في الردهات المظلمة إلى  
السجن المرتجل الوضع . والآن يضع يده على الباب الثقيل  
المفتوح إلى نصفه فيسمع هذه المهمة وهذه المناجاة وتلك  
الحشرة التي تصل بين السماء والأرض ، ويسمع هذه الكلمات  
الآخيرة من السيد جيوم إلى عشيقته :

— أريد أن تكون إيزابلا هي التي تمسك بيدي وتسكّر

عيني فصورتك ستكون تحت جفني منكسة . إننى واثق من أن  
 إيزابلا ستعيني خيراً منك فأنت لم تخلق لثنأى لحظة واحدة  
 عن شخصيتك . ومع هذا فأود سماع صوتك إلى النهاية . ليست  
 هو أجسك هي التي تختلط وتضطرب ولكنه صوتك المفعم  
 بالسماء . إننى أريد أن أذهب إليها . . . لست أنت التي أحبك  
 فإننى أبغض فيك أموراً شتى ولكنك وهبتنى في هذه الأرض  
 صورة عن السماء وإنى أحب هذا الملاك الخفى الذى يشبهك  
 فهو الملاك الكامل الذى يقف إلى جانب إنسانيتك الباقصة . . .  
 الوداع يامن هي أفضل منى ، يامن أقسو عليها وأحبها ؛  
 الوداع فإنى لاحق بالكوكب الذى أنت قبسة منه ، وبالسمو  
 الأبدى الذى أنت نفحة منه . . . وشكراً لك يا إيزابلا  
 العزيزة .

لم يستطع المطران أن يحتفظ بانفعاله أكثر من ذلك فأسرع  
 إلى قاعة الوليمة وقص على الفرسان كيف أن هاتين المسامتين  
 يساعدان هذا الثائر المسيحى على ميتة طيبة ويفتحان له أبواب  
 السماء . حينئذ يتبع الفرسان الرجل المسن ، يصحبهم همالو المشاعل  
 ويدخلون جميعاً فى الحظيرة . ياله من منظر ! هذا هو  
 الشاب يعالج سكرات الموت ، وهاتان الفتاتان تعينانه فى رقة



واحتمال . هذه الوجوه الرقيقة المعذبة بالآلام والشياب الفاخرة  
 الممزقة المملطخة بالدماء . ايزابلا تبرك على الأرض وتعمل جاهدة  
 كما تفعل القديسة أو كما تفعل البهيمة على أن ترفع هذا الجسد  
 الذي يلفظ نفسه الأخير ؛ وغانية الشرق تضم الجثة بذراعيها .  
 ما أشبه هاتين الجميلتين بالحب والشفقة ! كان هذا المنظر ينبيء عن  
 حدوث الطامة الكبرى والمأساة ذات الأسرار الثلاثة . وأصبح  
 هؤلاء الرجال الذين كانوا يبغضون هذا الفارس الشاب ويمجدون  
 لذتهم في ضربه حتى يموت يدهشون حين يشهدون الفتاتين  
 تواسيانه ، ويحيطون بنوع من التقدير الديني ذلك اللغز الشعري  
 الساطع الذي لم يمتلكوا مفتاحه ولم يكشفوا سره .

شطت أفكارهم ، حتى لم يدر بخلدكم أن ينطقوا بكلمة .  
 ولكن غانية الشرق توجهت إلى الأمير والمطران والفرسان قائلة :  
 — إنني لم آل جهداً في الإبقاء على السيد جيوم لأعمالنا ،  
 والحق أنكم فقدتم يا سادة بغير حق — أخاً بائساً أكثر  
 منه متهماً .

وقال المطران :

— لا ينبغي لنا أن نبغض الموتى ، ولا أن نبالغ في بكائهم  
 وإنما ينبغي أن نبني لهم قبوراً يثوون فيها . فليكن قبر السيد

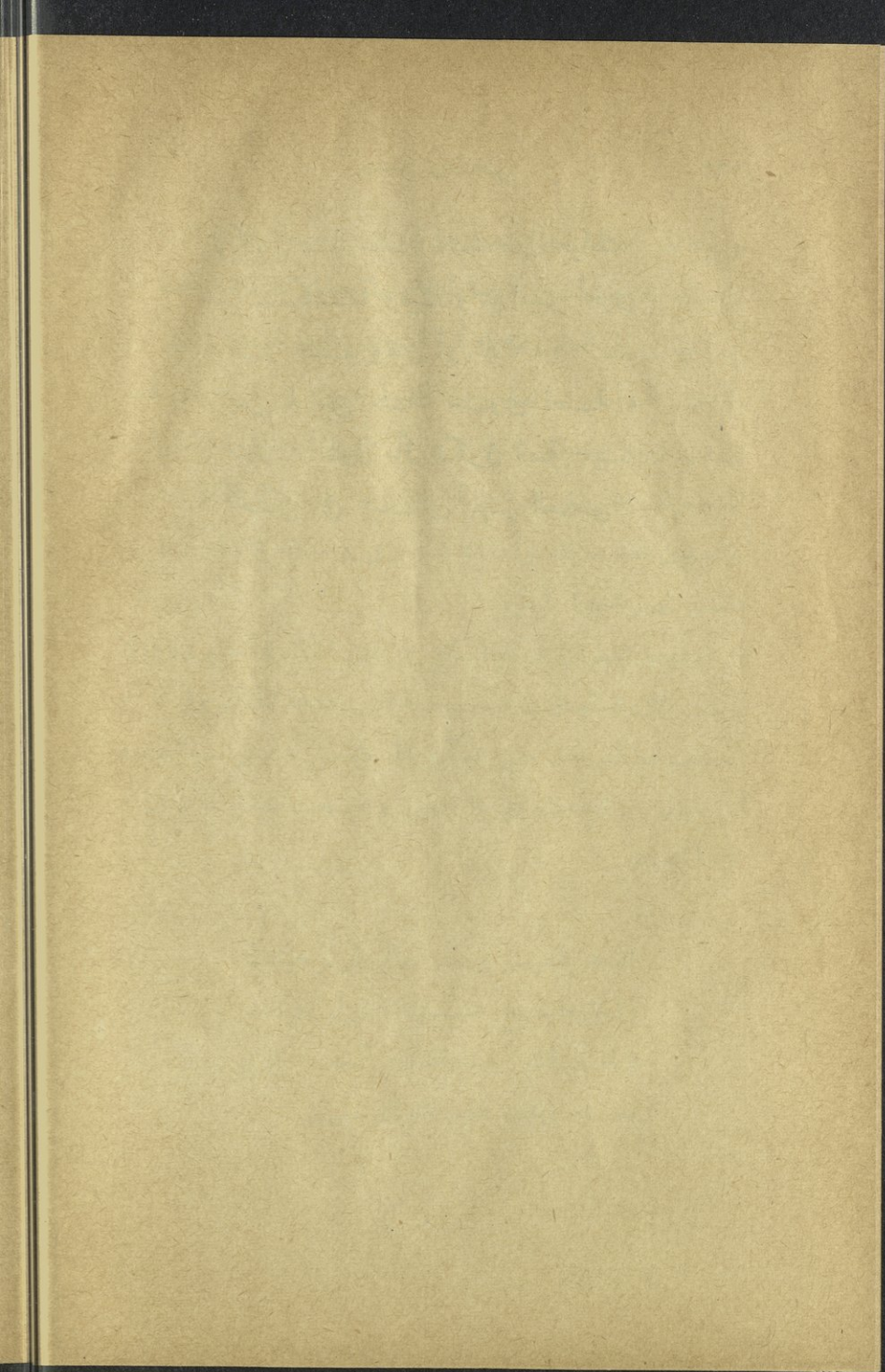
جيوم تذكرة لنا بخطاياہ وبؤسه وتوبته ! سيدتى غانية الشرق :  
لا شك أنك ستطيعين المنة العادلة والطبيعة الإلهية حين تحاولين  
أن تعيدى إلى العقيدة الدينية الشخص الذى منحها إياك أول  
الامر . لهذا سوف ندفن جثة السيد جيوم على مقربة من هنا  
فى دير نبنيه بعنايتنا جميعا ، وأنتن أيتها السيدات النبيلات  
المتنصرات عليكن بحراسة الجثمان . وأنت يا غانية الشرق  
ستجدين بعد موتك راحتك الكبرى وسنضع على قبرك قربان  
شعب تنصر أخيراً بأسره .

وأوما المطران فرقع الكل على قش الحظيرة الحقيرة وبارك  
الجثمان بتلاوة الصلوات المسيحية التى ردها الحاضرون ، ثم  
انسحب مع الفرسان حتى يتمكن النساء من أداء مراسم النياحة  
على الميت . وتقدمت إيزابلا خطوة وافتتحت حلقة المأتم تندبه  
بلوعة الشاعر :

لقد ظفرت برضاء العالم طول حياتك ،  
واسترحمت مع عشيقتك طول حياتك .  
فإذا دقت ساعتك آخر الامر  
فقد وجب عليك الرحيل .



ويكون هذا حاملاً صنعته طول حياتك .  
 كنت عاشقاً وفيّاً أوسميراميس أخرى  
 فلم تلبث يومين أو ثلاثة ،  
 حتى لم يبق منك سوى قصة ،  
 حقاً ! حاول أن تكون قصة جميلة  
 تحكى في بساتين نهر العاصي .





سكت القاص ، فلم يكن يسمع إلا خرير الماء من العجلات  
الضخام التي ظلت في هذه الليلة الباهرة من ليالى آسيا ، كلما  
غرفت من ماء النهر نظمت لهذه القصة جوقة عازفة من الأشجان  
والآنين والبكاء . ولبثنا بعض دقائق نسمع هذه الموسيقى التي  
ترف منذ أجيال ، دون انقطاع ، في سماء حماة . وكان صوتها  
الشاذى وسحر المساء في سوريا يتعاونان على الامتزاج بالقصة  
التي حاولت أن أستعيدها من جديد . وليس في مقدور أى بيان  
أن يعبر عن جمال هذه القصيدة الحية القائمة على أنين أبدى .

قال لى الايرلندى وهو ينظر إلى ساعته :

— لنرحل الآن لأن الساعة الثانية بعد منتصف الليل ، لقد

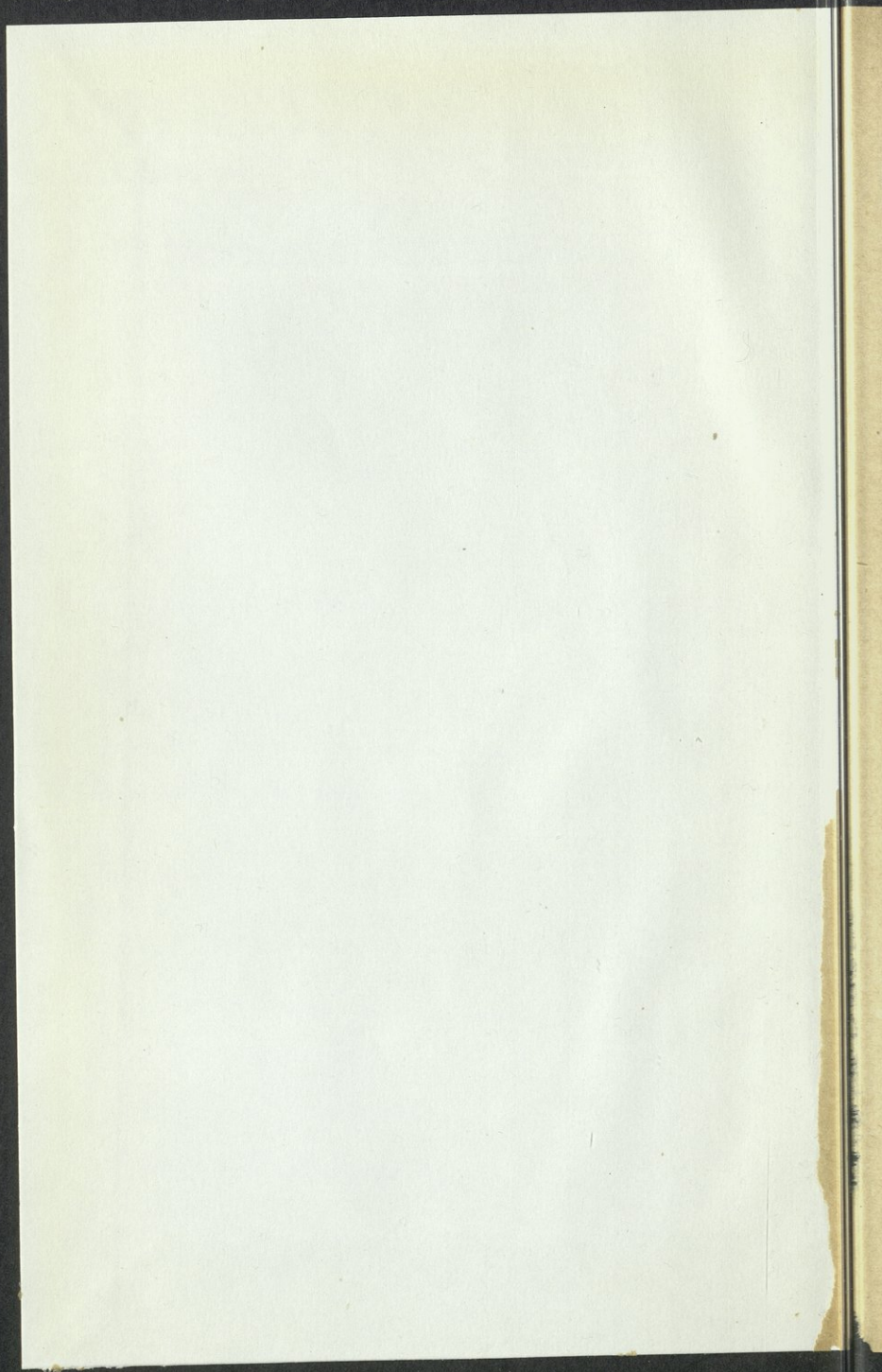
حان وقت النوم .

وكان يقطن لدى محطة السكة الحديد ، في غرفة جعلتها الشركة  
تحت تصرف المسافرين الموصى بهم ، أما أنا فذهبت أبحث عن  
عربة السكة الحديد التي أحضرتني في هذا المكان ، وهي واقفة  
على قضب التخزين وسرنا معا ، والكلاب الضخام تهرتنا وكنا  
نقلقها ، وبينما أنا دائب على انبعاث هذه الصور من الحب  
والآلام قال صديقي ونحن على وشك الافتراق :

— آه ! نسيت أن أخبرك أن الذي كتب المخطوط يحكي في  
الصفحة الأخيرة أنه في طفولته عرف غانية الشرق الحسنة وقد  
أصبحت رئيسة الدير في قلعة العابدين ، وأنه يمتلك هذه القصة  
من جدته إيزابلا الحكيمة إذ أنه نشأ من السلالة الثالثة الناتجة  
من زواجهما بُعيد موت جيوم الفاجع بأحد فرسان أمير  
الطاكية .

شارم ، يوليو - أكتوبر عام ١٩٢١ .





CLUB LIBRARY

## DATE DUE

[illegible]



U.B. LIBRARY

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



00468344

